العدد الثامن / السنة الثانية / (يوليو - سبتمبر) 2007



# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com





## الأمة تشق طريقها

كسرت الأمة أغلالَها... وشقَّتْ أقماطَها... وتسللتْ مسرعة لتلتقي ذاتَها الغائبة...
وتستردّ هويتَها الضائعة...! ولم تَعدْ تخشى العقبات... ولا تهاب الموانع والمُثبِّطات...
فبحَرارة عزيمتها تفتّتت جلاميد الإلحاد...! وذابت جدران الجحود والكفران...
وبحرارة القلب والإيمان توارت التحدّيات وغدَت سرابًا وهباء...!
ها هي بشرى المستقبل الواعد تلوح... وإرهاصاته تتوالى..
وبوارقه من وراء الغيب تومض وتومئ وتشير...!

* * *




## القوة المتحركة والمحركة...!

المسلمون اليوم ذكاء متعب أو قوة إبداعية تعاني نزع الاحتضار، وشعلة نفسٍ خابية، يُظِلُّهُمْ زمان لا يأتيهم إلا بالفواجع والآلام، أحلامهم كوابيس رعب شديدة الوخز، حضارهم كنوز عتيقة يفاخرون بها ولكنهم يحجمون عن إنماضها وتجديدها، إنهم لا يدركون أيَّ قُوى هائلة ينطوون عليها. ولكن مما يعزينا ويبعث فينا الأمل أقلامٌ وضَّاءة لا زالت تكتب وتقول، وعقول نيرة لا زالت تبصر وتهدي، ونفوس ذكية سامية لا زالت تتقدم الصفوف وتنير الطريق، وهذه "حراء" ذات النسب المحمدي "عليه الصلاة والسلام" لا زالت تستقطب هذه الأقلام والعقول والنفوس وتفتح صفحاتها لكل من يريد الإسهام في "الفتح الإيماني" المنتظر من هؤلاء الأساتذة بأقلامهم وأفكارهم.

إن أستاذنا الكبير "محمد فتح الله كولن" بقلمه الندي المتلطف هو رائد الأمل الباسم، والغد المشرق، إنه يحوك من خيوط اليأس نسيج الغد الذي يبشر به، ويدعو إليه، إنه يزرع في الأرض القفراء أشجار "السرو الإيماني" المتفجرة بالحياة، والمشتعلة بلهيبها الأخضر الريان، إنه يهدم بقلمه شكوكيات كل متشكك بجدوى الحياة الإيمانية عن طريق العقل والتجربة، ويشير إلى تلك الخيوط المتصلة بالعوالم التي لا حصر لها والتي هي من إبداعات الله جل جلاله.

أما الأستاذ "البوطي" فإنه يكتب عن أحجية الموت، هذه الأحجية التي حار فيها قديما وحديثا الفلاسفة والحكماء والأطباء. ويبين رأي الإسلام في "الموت" وكيف ينبغي أن نفهمه وأن نستقبله حين يحين الأجل. وأما المفكر الكبير الأستاذ "طة عبد الرحمن" فإنه يضع بين أيدينا طريقة للتفكير في إيجاد الصلة بين العلم والدين، وكيف مارسها المسلمون القدامى وكيف نمارسها نحن اليوم. والعالم الكبير الأستاذ الدكتور "زغلول النجار" يقيم صرحا تربويا عالياً لتلميذ القرآن، لتربيته والعناية به، ليتخرج بعد ذلك وهو مكتمل الشخصية وقادرًا على مواجهة الحياة بأفراحها وأتراحها، وبموازنة عالية لا إفراط فيها ولا تفريط. مع مقالات أخرى لا تقل أهمية عما أثبتناه هنا، غير أننا نعتذر لعدم تمكننا من الإشارة إليها لضيق هذه الصفحة عن الاستيعاب.

إن هذه القلّة من أصحاب الأقلام هم فخر المسلمين وتاجهم المتألق على مفْرَق رؤوسهم، إنهم القوة المتحركة والمحركة معاً في روح الفرد وفي روح الجماعة، فكيف تنسى كلماتهم التي صاغتها قلوبهم وقذفت بها أرواحهم.

إن معنى الحياة، وغاية الوجود، وقضية الجنس البشري ومآلاته في القابل من الأزمان، مع المعالجات العلمية الطموح هي محاور هذا العدد من "حراء". وقد خاضت أقلام كتابنا المحترمين في كل هذه الأمور، صحيح أننا لم نبلغ بعد تاج المعرفة، غير أننا نسعى إلى ذلك، لأننا نشعر بأننا مسؤولون عن الحياة بكاملها، وعن الإنسان في أي مكان من الأرض، ومن الله تعالى السداد والتوفيق.. ■




العدد الثامن – السنة الثانية (يوليو – سبتمبر) 2007

### التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

### شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

**مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:**
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

**صاحب الامتياز**
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

**المشرف العام**
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

**رئيس التحرير المسؤول**
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

**مدير التحرير**
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

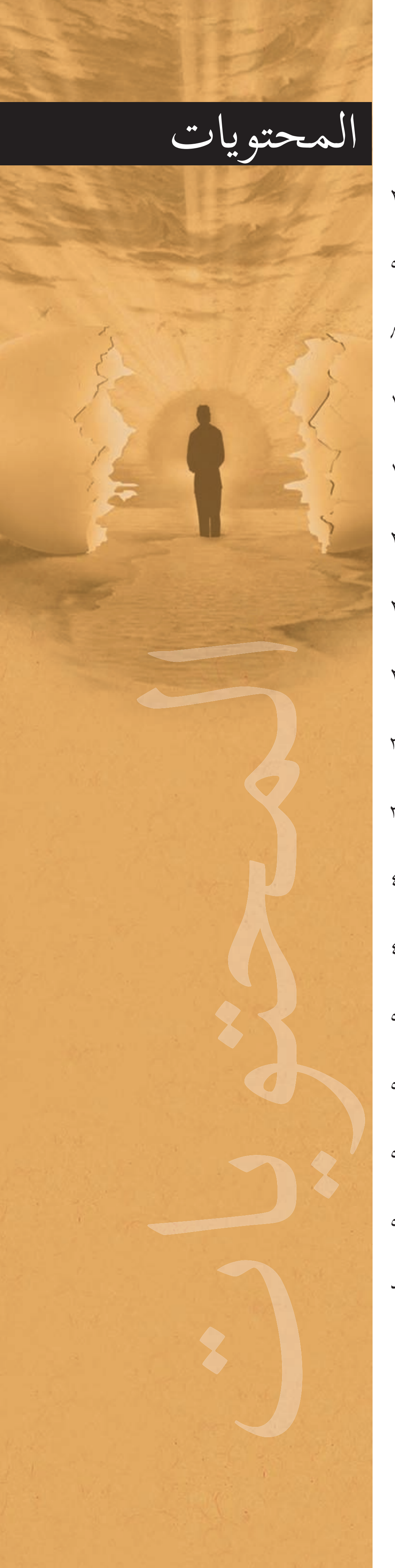
**المخرج الفني**
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

**المركز الرئيس**
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

**الإشتراكات/مركز التوزيع**
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

**الطباعة**
مطابع الأهرام التجارية / قليوب
جمهورية مصر العربية
Tel: +90 (232) 252 20 96

**رقم الإيداع**
١٨٧٩-١٣٠٦



# المحتويات

# نحو عالَم الغد



فتح الله كولن

## البحث عن جوهر الذات

لم يبرح العالم الإسلامي في القرون الأخيرة يدور في دائرة مفرغــة حائما حول أغلاطه من غير أن يجد جوهر ذاتــه وروحه؛ فكلما تقدم خطوة إلى الأمام، أعقبها بتراجع خطوات إلى الوراء أو انحرافات عن ســواء السبيل. بل كثيراً ما خلف هذا الســير المشــؤوم أو الانحراف اللعين الذي طغت خطاياه على صوابه وأغرقــت أضراره فوائده، آثاراً غير محمــودة على الجهود الذاتية الاجتماعية في تحري ســبل العودة إلى الــذات، فعرّضت الأعمال الطيبــة ورجالها إلى التزلزل من الأعماق. هذه الحال تدل على أن عقد الخرز قد انفرط في العالم، وأن دولاب الدول والشعوب يدور خلاف مصالحها.

لذلك، نؤمــن بضرورة توجيه العالم الإســلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام،[1] وممارسة الإحســان، وإثارة العشق والشــوق، وتحكيم المنطق، وتعديل طريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن الفس، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال.

### الفكر الديني

إن أساس حياتنا الروحية قائم على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، ويتفتح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنَى، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصراً على العبادات؛ إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعاً... ويتدخل في كل ما هو لنا: عقليٍّ وروحيٍّ وقلبيٍّ... ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويلونه بلونه.

### البعد الجهادي

نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفُه ومنطقه مزيج واحد متداخل... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره سُلّمٌ نوراني يتصل بالعقل، والعلمُ برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يحلق إلى اللانهاية دوماً بأجنحة العشق العملاقة في هذا السُلّم، وحلاجٌ يندف قطن الوجود ندفاً بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة.

### خرافة الصدام بين العلم والدين

والذين يختلقون صداماً بين الدين وبين العلم والمحاكمة العقلية، هم بؤساء جهلوا روح الدين والعقل. أما إلقاء مسؤولية الصراع بين الفئات الاجتماعية المتنوعة على كاهل الدين، فهو انخداع من كل النواحي. لأن الصراع بين التكتلات نابع من الجهل والمنافع الشخصية والمصالح الفئوية. ولن يؤيد الدين أيًّا من هذه المشاعر والأفكار. والواقع أننا قد نشهد صداماً وصراعاً بين قسم من المتدينين أيضاً، إلا أن هذا يرجع إلى أن هؤلاء الحاملين لنفس الجذوة الروحية لم يبلغوا المستوى المطلوب في صدق الإيمان وحفظ الإخلاص... وربما تغلبهم عواطفهم أحيانا... وإلا فالفضيلة المؤمنة لن تفتح المجال للسقوط في أمثال هذه التعاسة. والواقع أن سبيل النجاة الوحيد من السقوط في هذا البؤس هو إحياء الدين بكل مؤسساته وجعلُها مصدر حياة وغذاء للمجتمع.

### الانبعاث الجديد

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى "انبعاث جديد"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبتعبير أكثر حيوية، إلى "إحياء"... إحياء يستجيب لمتطلبات جميع أصناف البشر ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تتسع لها مرونة النصوص، مع السعي الجاد للحفاظ على أصول الدين.

إن هذا النظام المبارك منذ أن شعرنا بظله فوق رؤوسنا –أدام الله حفظه علينا إلى الأبد– قد فتح بابه مراراً على التجديد والإصلاح، فشهدنا الانبعاث مرات عديدة. فعامة المذاهب ومعظمها تمثّل التجديد في الفقه والحقوق. و أما الطرق الصوفية فقد مهدت المسالك إلى القلب والروح وعبّدتها. والكتاتيب والمدارس عموماً –يوم أن كانت لنا– قامت في غالب نشاطها بإضفاء المعنى على الوجود والكون. وأما التجديد والانبعاث المأمول في الوقت الحاضر، فيتحقق بالتوفيق بين كل ما ذكرناه من المؤسسات وحشدها جمعاً في مَجمع واحد. وهذا يعني النفاذَ من القالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجّه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر...

### الكمية والنوعية

نعم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفاً في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساساً في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازما. وفي كل هذه الغايةُ والقصد هو الله... فليست الصلاة قياماً وقعودا... ولن تكون الزكاة مالاً مطروحاً تخرج من المال تبرئة للذمة وتصرف إلى حيث لا يدرى أين مصيره... ولئن صار الصيام جوعاً وعطشا، فماذا يميزه عن الحِمْية؟ والحج إن لم يجْر في فَلَكه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تدرّ على بعضهم عملات أجنبية؟ والعبادات إن انحصرت في الكم قد تصير كلعب الأطفال... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلوق... والحج والعمرة إن صارتا مشقة تُحتمل للتسلي بحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف يفقدان الحكمة والقصد منهما...

### أطبّاء الروح

إن سبيل الخلاص من الاضمحلال والهدر في شِباك كل هذه





السلبيات، هو إعلان النفير العام لإعداد أطبّاء الروح والمعنى، الذين يملؤون كل الفراغات في كياننا، ويزيلون نقاط الضعف في نفوسنا، وينقذوننا من عبودية الجسم والبدن ويقودوننا إلى مستوى الحياة القلبية والروحية... أطباء تتسع قلوبهم لكل ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات... من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك. إن هذه الأمة ليست بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا المخ المدبر. فكما يرتبط العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن هذا الفريق سيكون في تعاط مع جميع خلايا جسم الأمة وجزيئاته وذراته وجُسيماته، ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويمتد تأثيره إلى جميع أجزائه الحيوية... ويهمس في أذن كل شرائحه شيئاً من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقا أشد غورا في الحاضر، وممتداً إلى المستقبل.

### فريق الإيمان

هذا الفريق يسع صدره لكل الناس؛ من الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، إلى أبناء الوطن السائبين وغير المنضبطين في الأزقة والشوارع. ويُفرِغ في كل صدرٍ إلهاماتِ روحه، ويربّيهم دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته ويُعِدّهم لفائدة المجتمع، ويرفع كل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والتكايا...

هذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتاً ونَفَساً للدين والملّة من وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القاتمة والأصوات المدلهمة، للوصول إلى سبيل المستوى الإنسانية.

هذا الفريق ينقذ مؤسسات التربية والتعليم التي تغير شكلها ووجهتها كل يوم حسب الأجواء تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية... ينقذها من وصاية الأفكار الدخيلة من مراكز القوى العالمية، فينظمها بصورة تستجيب لمتطلبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة وهدف ببرنامجها وخطتها وأسلوبها.

بفضل ذلك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ الببغائي والنمطية إلى التفكير العلمي الحقيقي، ومن تزكية أنواع الرذائل باسم الفن إلى الفن والجمال الحقيقي، ومن العادة والإدمان المجهول المنشأ والنسب، إلى الشعور الأخلاقي النابع من الدين والتاريخ، ومن التعصب لشتى الأفكار القابعة في صدورنا والتي أضنتنا وأنهكتنا، إلى توحيد القبلة في الخدمة الإيمانية والتسليم والشعور والتوكل.

لنضعْ جانبا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم، نحن لا نصدّق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجينها الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان ثَمّ عالَمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن. وقد يتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن.

### الولادة الجديدة

هذه الولادة الجديدة، ستُكسب عالم مشاعرنا وأفكارنا، وكذلك مفاهيم فنّنا وجمالنا، أعماقاً مختلفة اختلافاً شاسعاً عما هو عليه الآن. وبذلك سنكتشف أذواقنا البديعة ونصل إلى موسيقانا، ونعثر على رومانسيتنا... ونجعل شعبنا يستقر على أساس متين من كل النواحي، سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله.

شعارنا في هذا المضمار النفيرُ والإقدام، ومصدر قوّتنا الإيمان والحقيقة. لقد أخفق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن المعالي، وبقينا شرفاء، بفضل الله الذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمنا وانتمائنا إلى أمتنا التي رجحناها على كل شيء دنيوي، وبلادِنا التي نشأنا في ربوعها وترعرعنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال!

وسنتابع في فصل آخر إن شاء الله مواضيع في الانبعاث من جديد. ■

---

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

**الهوامش**

(1) المقصود من تلقيات الإسلام أو متلقياته: طبيعة فهمه وتداعياته في الإنسان ونوع التصورات بشأنه.(المترجم)

**إن رقيّ أيّ أمة وتقدمها مرتبط بمدى التربية التي يتلقاها أفرادها من الناحية العاطفية والفكرية. فلا يُنتظر تقدم أمة لم تتوسع آفاق أفرادها الفكريةُ والوجدانية.**

***

# ما الموت؟!.



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

لم يتحدّ الله في قرآنه الناس أن يخترقوا حكمًا قضى عليهم به، إلا حكمًا واحدًا، هو الموت، وذلك في قوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء:٧٨)، وفي قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾(الجمعة:٨).. فأما فيما وراء ذلك، فقد ترك الله ساحة الدنيا مسخّرة للإنسان خاضعة لإمكاناته العضلية والعلمية.

**كل نفس ذائقة الموت!**

هذه الجملة من قرار الله في حقّ عباده؛ تقول لدعاة العلم الحديث وللمتوثبين لغزو الفضاء، ولمن يزعمون اليوم أنهم يتحكمون بناصية الطبيعة، أن: "أجمعوا أمركم واضفروا جميع إمكاناتكم واحشدوا أقماركم ومراكبكم المشروعة، ثم جنّدوا ذلك كله لإزاحة سلطان هذا الموت الذي قهركم واستذلّكم، فإن أنتم نجحتم في ذلك كنتم الأقوياء حقًّا والمبدعين حقًّا".

ولكن هذا التحدّي الربّاني المتكرر في القرآن، يظل هو المهيمن والغلّاب.. ويظل الناس الذين يقودون سفينة العلم والمخترعات في عباب هذه الدنيا، محكومين أذلّاء لسلطان هذا التحدّي الإلهي.. وإنك لتتأمّل فتجد أن أحدهم يموت كما تموت أضعف ذبابة في الكون! إنها الحقيقة التي قهر بها الله سكّان هذه الدنيا كلها، منذ فجر الوجود إلى أن تغيب شمسه!..

**ولكن.. فما هو الموت؟**

إن من تتمة مظاهر القهر الرباني، أن منهج الدراسات الغربية للعلم وحقائقه، جعل حقيقة الموت مجهولة وشاردة عن ساحة هذه الدراسات!.. ذلك لأن "العلم" في المنظور الغربي لا سلطان له إلا في نطاق المادة.. إن "الروح" لا معنى ولا وجود لها في قاموس هذا العلم، ومن ثم فإن البحث في "الروح" غير داخل في شيء من موضوعاته ومسائله.. ولما كان الموت -فيما أخبر عنه القرآن- انفصال الروح عن الجسد بعد أن كانت سارية في نسيجه وسائر خلاياه، فقد غدا بسبب ذلك ظاهرة مجهولة الحقيقة. وكل ما رصدته الدراسات الغربية من هذه الظاهرة لا يتجاوز عوارضها المرئية الخاضعة لمقاييس المادة، كسكون القلب، وغياب الإحساس، وسكون النبض، وموتِ ما يسمى بجذع الدماغ.. وواضح أن هذه وأمثالها ليست هي جوهر الموت، وإنما هي من عوارضها وآثارها.

ومن ثم، فقد وقر في ذهن الغربيين أن الموت لا بدّ أن يكون انطفاء لجذوة الوجود، وانتهاء من الحيّ إلى العدم، وقد جاء تعبيرهم: "حُكِم على فلان بالإعدام" نتيجة لهذا التصور!.. وقد سرت عدوى كلمة "العدم" هذه إلى كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فقد أصبحت كلمة "العدم" تعبيرًا عن الموت فيما تلوك ألسنة كثير من الناس.

ولكن الموت -كما أخبرَنا عنه "خالق الموت والحياة ﷻ"- ليس عدَمًا، بل هو انتقال الكائن الحيّ من هذه الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ.. وتفصيلُ ذلك بالقدر الذي تسمح به هذه الورقة، أن الإنسان ثنائي التركيب في كل الأحوال، قبل الموت وبعده، أي إنه مؤلف من الجسد والروح السارية في أجزائه. غير أن الروح تكون هي الحبيسة لحساب الجسد، والتابعة له في هذه الحياة الدنيا. فإذا مات الإنسان انطلقت الروح وغدا الجسد هو التابع لها.

> **الموت -كما أخبرَنا عنه "خالق الموت والحياة ﷻ"- ليس عدَمًا، وإنما هو انتقال من الحياة الدنيوية هذه إلى الحياة البرزخية التي تفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.**

فإن ختم للإنسان بما يرضي الله ﷻ من صالح الأعمال، انطلقت روحه مشرّقة ومغرّبة، تجوب الآفاق كما تشاء، ولكن يمتدّ منها إلى الجسد الذي يثوي في تُربته ما يشبه أشعّة الشمس التي تمتد فتتصل بكل ما تشرق عليه، فهي بعيدة عنه بذاتها ولكنها متصلة به بأشعّتها. كذلكم الروح، مفصولة عن جسد الميت بذاتها، متصلة به أينما ذهبت بأشعّتها.. وبسرٍّ من هذا الاتصال يتمتع الجسد بالإحساس، سواء أكان جسدًا متماسكًا أم تحوّل إلى رميم وفُتات!..

وإن ختم للإنسان بخاتمة السوء، انفصلت عنه الروح لتهوي إلى القرار الذي أعدّه الله لها، والذي فيه من الضيق والآلام ما لا يعلمه إلا الله، وإلاّ من سبق وذاقه، ويمتدّ منها -وهي في مقرّها ذاك- إلى الجسد ما يشبه أشعّة الشمس، فتكون روحه موصولة به وإن كانت منفصلة عنه.

ومن هنا يتعرض الميت جسدًا وروحًا لما أعدّه الله له من نعيم القبر أو عذابه.. تتنعم الروح، فتسري مشاعر هذا النعيم إلى الجسد وذراته أينما كان، أو تتعذب الروح فتسري مشاعر العذاب إلى الجسد وذراته أينما كان أيضًا.

**ولكن فما الدليل العلمي على هذا الكلام؟**

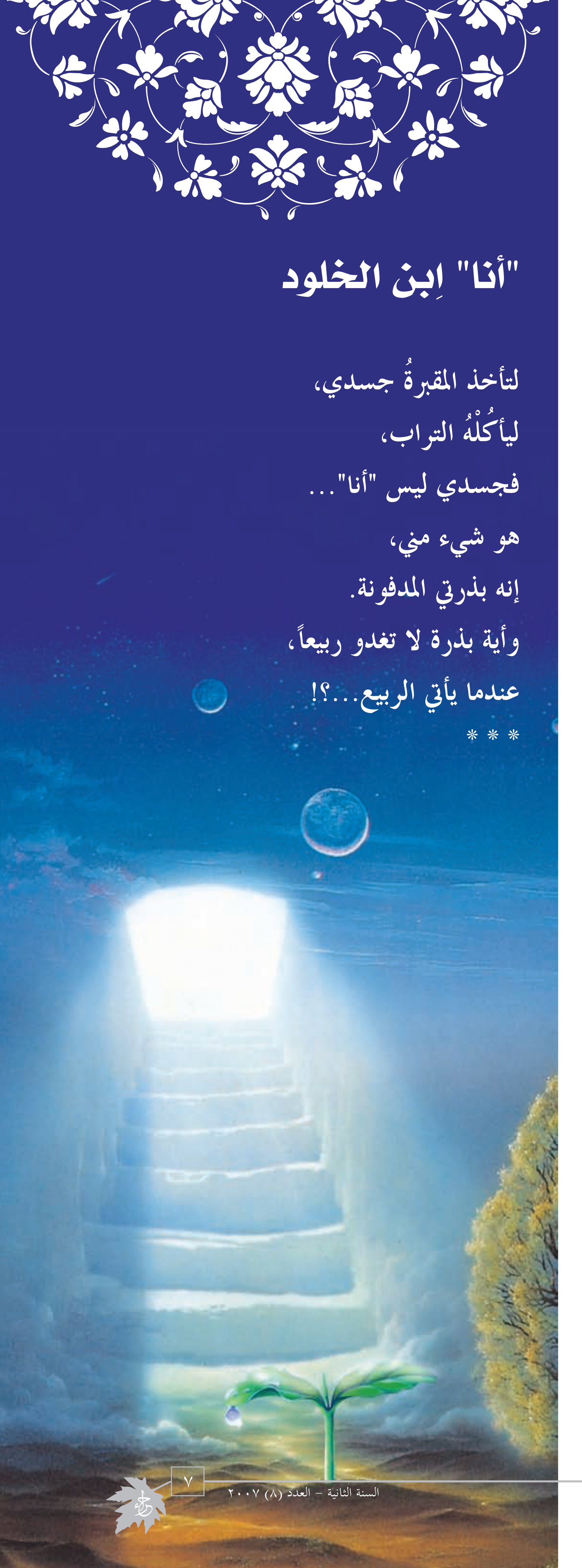
أذكّر قبل بيان الدليل بما هو معلوم في منهج البحث العلمي أن الحقيقة المراد معرفتها إن كانت مادّية خاضعة للحس فسبيل معرفتها التجربة والمشاهدة، وإن كانت غير خاضعة للحس كأحداث الماضي السحيق والمستقبل البعيد، وما لا يدخل وجوده تحت سلطان الحواس، فالطريق إلى معرفتها هو الخبر الصادق الذي يصلنا عن طريق التواتر. وقد عرفنا أن جوهر

الموت غير خاضع لشيء من الحواس ووسائلها، وإنما الذي يخضع للحواس ظواهر الموت وأعراضه.. إذن فالخبر الصادق المتواتر هو الذي يكشف لنا عن حقيقة الموت. والخبر الصادق هنا هو كلام الله الواصل إلينا عن طريق التواتر. وإيماننا بالله خالق الموت والحياة ليس محل نقاش هنا.

وقد أكّد بيان الله في القرآن، في أكثر من موضع، أن الموت ليس عدمًا، وإنما هو انتقال من الحياة الدنيوية هذه إلى الحياة البرزخية التي تفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. يقول الله تعالى عن آل فرعون وحالهم بعد الموت ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾(غافر:٤٦)، ويقول عن مصيرهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(غافر:٤٦)، ويقول عن الذين ظلموا أنفسهم في دار الدنيا بالجحود والاستكبار على الله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ،[1] الْيَوْمَ[2] تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(الأنعام:٩٣). ويقول عن نموذج من الناس الذين أيقنوا بوجود الله وخضعوا لسلطانه ودانوا بذلّ العبودية له، وهم الشهداء ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(آل عمران:١٦٩).

وبعد، فإن المنكر لوجود الله خالقًا لكل شيء، لا يقيم لهذا الدليل وزنًا، ولا يرى بينه وبين العلم أي نسب.. والموقن بوجود الله ولكن مع إنكاره لما هو ثابت من أن القرآن كلام الله، هو الآخر قد لا يقيم وزنا لهذا الدليل.

ولكن مَن علِم وجود الصانع ﷻ، وأيقن أن القرآن كلامه، علم أن ما قلته هو القرار العلمي الذي لا يلحقه ريب. ونحن موقنون بوجود الصانع خالق الموت والحياة، وموقنون بأن القرآن كلام الله ﷻ. إذن فحديث القرآن عن الموت وحقيقته، كشف عن واقعه وذاته. وليس ثمة من هو أعلم بالجهاز المصنوع من صانعه. ■




---

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

**الهوامش**

(١) أي يقولون للظالمين أخرجوا أرواحكم.

(٢) المراد باليوم ما بعد الموت مباشرة.



# من عجائب الرحمة الإلهية: الوَحَم

د.سليم أيدين*

هذا الأمر معروف لدى كثير من الناس، ومعروف عند الأمّهات اللواتي يتحمّلن المشقات بسببه، ومعروف لدى الآباء لأنهم يشهدون على ذلك. والذين لا يعلمون حقيقة المسألة، يوجهون التّهم إلى زوجاتهم قائلين: "ومَن يدري ماذا أكلتِ؟!"، أو تتحدث النساء فيما بينهن: "إنّ فترة حملي مزعجة للغاية"، وذلك للتّعبير عن عدم رغبتهن في الإنجاب مرة أخرى. بينما تروي بعضهن كيف أنهنّ أتعبن مَن حولهنّ عندما اشتهين أكل البطّيخ في فصل الشّتاء أو أكل البرتقال في فصل الصّيف.

**نعمة الوحم**

تُعرف علامات الحمل في مظاهر الغثيان والقيء والاشتهاء المفرط لبعض أنواع الأغذية أو النفور من أنواع أخرى باسم "الوَحَم" أو "مرض الصّبح". وغالبا ما يظهر الوحم في الأشهر الثلاثة الأولى (ما بين ٧ و ١٢ أسبوعا من الحمل). وتختلف المؤشرات الطبّية حسب شدة الغثيان والقيء باختلاف البنية الجسدية، وترتبط كذلك بنوعية الأغذية المُتناولة. وتنقطع الشكوى من الغثيان والقيء عند أغلب النّساء مع بداية الشهر الرّابع للحمل، وتستمر لدى القليل منهن خلال الشهرين الخامس والسادس.

وكشفت الأبحاث في الآونة الأخيرة أنّ هذه الظاهرة تخفي خلفها رحمة عظيمة مُستترة من لَدن الخالق سبحانه، فهي ظاهرة زاخرة بالحِكم. أجل، إنّ الوحم ليس قلَقًا أو مرضًا، بل هو درع فيزْيولوجي يحمي الطفل.

إن الأبحاث التي أثبتت أن الوحم في سيره العادي مفيدٌ للأم من جهة وللجنين في مرحلة نموّه من جهة أخرى، لقيت استغرابًا في الوهلة الأولى؛ فقد كان الرّأي السائد -إلى يومنا هذا- يتمثل في ضرورة إجراء معالجة طبية إذا ما أدّى الوحم إلى قيء مكثف

مما ينجرّ عنه فقدان في توازن السّوائل في الجسم بسبب حدوث نقص في كمّية الأملاح والفيتامينـــات. ويطلق على هذا النوع من القيء والغثيان الشـــديدين في لغة الطب اسم "hyperemesis gravidarum".

## ما هي أسباب الوحم؟

لا تُعرف الأسباب الحقيقية للوحم، لكن من المعلوم أنّ التغيّرات الهرمونية واختلاف ســكر الدّم في فترة الحمل يلعب دورًا مهمّا في ذلك. ومادة الأستروجان التي تسجل زيادة في بدايات الحمل والتي تفرز من المشـــيمة (وهي طريق التّواصل بين الأم والطفل) ترهف حاسَّـــة الشـــمّ وتجعلها كثيرة التأثر بما تشمه. لذا تزداد حاسّة الشم قوّة لدى النساء الحوامل اللائي لديهن كمية أكبر من مادّة الأســـتروجان في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل. كما أنّ الأستروجان وهرمونات البروكسترون (pro-gesteron) من شأنها زيادة الحساسية لـــ"المنطقة المنشـــطة" للـــ"كمورابسابتورات" الواقعة في الدماغ، ويؤدي هذا الأمر إلى الكشف عن التوكسينات (السّـــموم) الموجودة في الدم بكمّية قليلة جدّا. وعندما تكتشف هذه المنطقة في الدماغ وجود السّـــموم الموجودة في الدم تحرّك أحاسيس الغثيان والقيء على الفور. كما أنّ هناك تقارير أثبتت أنّ البكتيريا المسماة بـــ "helicobacterpylory" تلعب دورًا مهمًّا في وقوع إثارتهما بشكل مكثّف.

وإذا اعتبرنا كلاًّ من الغثيان والقيء نظاما دفاعيا للبنية الجسدية ضد الأجسام الغريبة، فإنّ العلامات الطبّية للوحم من الغثيان والقيء تصبـــح موضع نقاش حول ما إذا كانت مرَضا أم لا. والتغيرات في الأستروجان والبروكسترون وسائر الهرمونات، ليست سوى ردود أفعال نيروهرمونية يقوم بها الجسم في إطار النّظام الدفاعي. وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة التي أجريت على النّساء الحوامل من اللواتي عشن الوحم واللواتي لم يعشـــنه، أن الهرمونات المتزايدة ليست عاملا في حدوث الوحم، كما لا نجد أيّ دليل يوحي بأنّ محاولة تذليل شكاوى النّســـاء حول الشعور بالاشمئزاز والغثيان نحو أغذية معيّنة سوف ينفع الجنينَ والحمل. بل على العكس من ذلك، فإنّ الأبحاث الأخيرة أثبتت أنّ هذا الوضع ليس مرَضيّا، وإنما هو نظام دفاعيّ ذو فوائد مهمّة للجنين الذي ينمو في رحم الأم.

## حكمة الوحم

وكان "مارجي بروفت" من جامعة كاليفورنيا – باركلي (The University of California at Berkeley-Margie Profet) أول مـــن لفت النّظر إلى هذا الموضوع في عـــام ١٩٥٥م. رأى هذا الباحـــث أن الوحم يمثل آليّة رحمة إلهية هدفها حماية الجنين الذي ينشـــأ داخل جسم الإنسان بشكلٍ معجز، وأنه يحمي الجنين من السّـــموم الطبيعية في الأغذية. وحسب الإثباتات والاكتشافات فإنّ المرأة التي تتجنب بدافع الوحم تناولَ بعض الأغذية في فترات حسّاسة خلال الحمل تتمتع بحظّ عال لإنجاب مولود سليم.

وتحتـــلّ حالات الإعاقة عند الإنجـــاب مكانة هامّة في يومنا أيضا، حيث نجد في أمريكا الشـــمالية أن نسبة تتراوح بين ٢٪ إلى ٣٪ من حالات الإنجاب السنوي تدخل في إطار الإعاقة عند الإنجاب. ورغم اكتشاف الأسباب الجينية لبعض هذه الإعاقات الـــتي تقع عند الإنجاب والتي تتكوّن خـــلال فترة الحمل، إلاّ أنّ أســـباب ثلثَيها غير معروفة. وحسب رأي "بروفت" فإنّ السّبب في ذلك هو تناول الأغذية بشكل عشوائيّ خلال الحمل، وكذلك الغذاء غير المنتظم لدى النساء غير الواحِمات.

وأثبت الباحـــث بجامعة كورنال "باول شـــارمان" (Paul Sherman) وزملاؤه عام ٢٠٠٠م بأدلّة مقنعة أنّ للوحم حِكمًا هامة لدى ٨٠ ٪ من النّساء الحوامل.

أقر شـــارمان وفريقُه أن الحكمة من وراء الحساسيّة المفرطة للجســـم البيولوجي نحو أغذية معينة هو حماية الأمّ والجنين معًا من السّـــموم الطبيعية المحتمل وجودها في الأغذية، وكذلك من الموتاجينات (المواد المضرة التي تتســـبب في طفـــرات وراثية). والشـــعورُ بالغثيان والقيء (الوحم) في بدايات الحمل يمنع الأمّ من تناول الخُضر والأغذية المحتمل احتواؤها على مخاطر السّموم. وهكذا يظل الطفل البريء في ظلّ الرحمة والعناية عند نموّه، وهو نفـــس ما يحدُث بتوجيه إلهيّ لكثير مـــن الحيوانات المحرومة من العقل والعلم عندما تبحث عن أغذية معينة.

وثبت أن احتمال إســـقاط الجنين لدى النساء اللواتي يعشن الوحـــم المعتاد بالقيء والغثيان ضعيف جدًّا، في حين تظل مخاطر إســـقاط الجنين وإنجابِ طفل معاق لدى النساء اللّواتي لا يعشن الوحم نســـبة مرتفعةً. وقام "فلاكســـمان" و"شرمان" بتحليل نتائـــج ٥٦ بحثا أجريت على ٧٩,٠٠٠ امـــرأة حاملاً من ١٦ دولة للتوصّل إلى هذه الاســـتنتاجات. وكانت نسبة ٦٥٪ من النّساء الحوامل يشـــعرن باشمئزاز وقرف وغثيان ضدّ نوع واحد من الأغذية على الأقل، و١٦٪ من النّســـاء الواحِمات يشعرن

باشمئزاز ضدّ المَشــروبات الكافائينية (الكافائين هي المادّة المنبّهة في البنّ)، و٨٪ منهنّ ضدّ الأزهــار وخضر معيّنة مثل القرنبيط والكرنب، و٤٪ منهن ضدّ الأغذية الحارة والأغذية التي تحتوي على توابل.

والعجيب في كلّ هذا هو احتواء جميع هذه الخضر والأغذية ذات التوابــل على سموم طبيعيــة. وتعد السّــموم الطبيعية في النباتات وجها آخر للرحمة والشفقة، حيث تحميها من الحشرات والبكتيريــا المضرة والمؤدية إلى الأمراض. لكن هذه الخضر تحمل في طياتها مخاطر تتمثل في إلحاق الضرر بالجنين الذي لا يملك أيّ نظام دفاعيّ في مرحلة نموه. ويدعم الشــعورُ بالغثيان والاشمئزاز المتكون في جسم الأم منعَ تسرّب هذه الأغذية إلى الجســم مما يســاعد على نمــو الطفل بشكل صحي. و٢٨٪ من الحوامل الواحمات يشعرن باشمئزاز وغثيان ضدّ الأغذيــة الحيوانية. وقد قارن الباحثون في "جامعة كورنال" بين السّــجلات والاكتشــافات المتعلقــة بالوحم في ٢٧ مجتمعا مختلفا لتأييد إثباتاتهــم. ووجدوا ظاهرة الوحم في ٧ مجتمعات من بــين ٢٧ مجتمعا، ولم تكن تظهر كمشكلة طبية سريرية، لأنّ أهلها تعــوّدوا على اســتهلاك الذّرة والأرز والبطاطــا فضلا عن اللحوم، بينما عمّت الشــكاوى الطبية السريرية المتعلقة بالوحم في ٢٠ مجتمعا منها. وكان السبب في ذلك يرجع أساسا إلى استهلاك الأغذية الحيوانية واللحوم غالبًا في المأكولات التقليدية لهذه المجتمعات.

وبما أن غذاء الجنين يأتي من البروتينات الموجودة في اللّحم لدى النساء الحوامل اللواتي يستهلكن اللّحوم، فإنه من المحتمل أن تُلحق الكائنات الطفيلية والبكتيريا المتســببة في الأمراض داخل اللحوم أضرارا بالجنين. لذا يجب منع هذه الأغذية من التّسرب إلى جسم الجنين، الأمر الذي يكوّن شــعورا باشمئزاز وغثيان ضدّ الأغذية المضرّة، وذلك بوقوع زيادة في قدرة الشمّ والطعم بمئات الأضعَاف.

رغم أن الشــعور بالاشمئزاز والغثيان حالة عرضيّة وحدث مؤقّت لدى كثير من النســاء، فإنه مــع ذلك يحمل أهمية كبيرة بالنســبة إلى مرحلة الحمل. وتعد فترة تزايد الشــكاوى جرّاء الوحم أخطر فترة خلال الحمل، حيث تزداد حساســية الجنين ضد المواد الكيميائية خلال الأشــهر الثلاثة الأولى للحمل نظرا لتكون الأعضاء فيه.

ويتــم الضغط في هذه الفترة على نظــام المناعة للأمّ كي لا يَرفض الجنين، وذلــك عبر إحداث تغيير حيــويّ وإعجازيّ، وبذلك يلتصق الجنين بجدران الرّحم التصاقا شــبيهًا بانتشــار جذور الشــجرة في التراب. ولئن كان هذا الضّغط أمرًا إيجابيا للطفل، إلا أنه قد يكون ســلبيا للأمّ التي تصبح -في هذه الحالــة- عُرضة للجراثيم المســببة للأمراض. ولذلك يتحوّل جهاز الالتقاط في دماغ الأمّ إلى وضــع حســاس جدًّا، كي لا تقبــل الأمّ الحامل الأغذية الفاسدة والمحتوية علــى البكتيريا في الفترة التي يقع فيها الضغط على نظام المناعة.

## ســموم الأغذية وخطورتها على الجنين

والشــعور بالنفور والغثيان من رائحة القهوة مؤشّــر مهم على الحمل، لأن القهوة تحتوي على ما يزيد على ألف نوع من السّــموم، ومنها الكافيين. كما تحتوي أنواع الشّاي النباتي على التوكســينات الطبيعية مثلما هو الأمر بالنسبة إلى التوابل. ويحتوي الجزر الغنــيّ من حيث الفيتامينات على مادة كيميائية تعــرف بــاسم "بســورالين" (psoralin)، ويحتــوي الفطر عــلى "الهيدرازين" (hydrazine) ونبات الرّيحان على مادة سامّة تسمى "إســترغول" (estragol) وهي تؤدي إلى تغيّرات وراثية. ويحتوي الكرنب الأحمر والزّهــور والكرنب الأبيض على مادة مسبّبة للتّحولات وتعرف باسم "I-isothiocyanate". وتحتــوي قشــور البطاطا والطماطم على مــادة "السولانين" (solanin).

وتفرز هذه النباتات كلّ تلك المواد السامّة المذكورة من أجل حماية نفسها من الأعداء. وعلى سبيل المثال، ترتفع نسبة الإعاقة لدى جدي الماعز إذا استهلكت الماعز الحامل نباتا عشبيًّا يعرف باسم "Lupinus sp" أو "الفول المرّ" الغنيّ بالسموم الطبيعية بكمّية كبيرة.

وبفضل الأنزيمات المغيرة لتركيبة السّموم الموجودة في الكبد، فإنّ جسم الإنسان يستطيع أن يجابه التأثيرات السلبية لهذه الخضر والفواكه عند استهلاكه، بينما تمثل هذه الأنزيمات خطرا جادًّا على الجنين النامي في رحم الأم، لأن الجنين لم يحصل بعدُ على الآلية الفيزيولوجية والأنظمة المضادة لتلك السموم الطبيعية في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، فلا مفرّ إذن من أن تُلحق هذه الأغذية التي تحتوي على السّموم الطبيعية والتي تستهلكها الأمّ أضرارا بالجنين. ويكمُن الحلّ إذنْ في ضرورة عدم تناول الأمّ لهذه الأنواع من الأغذية، ومن هنا يتحوّل جهازا التّذوق والشّم لدى الأم إلى وضع حساس جدًّا.

وبما أن المواد المؤثرة داخل التوابل مضادة للجراثيم والطفيليات فإنّ استعمالها في الأطعمة مفيد للكبار وغير الحوامل من النساء من حيث الوقاية، خاصّة. واستهلاك النّاس المقيمين في أقاليم ساخنة ذات مأكولات حارّة وغنية بالتّوابل قرار صائب، لأنّ التّوابل الحارة تقلل من مخاطِر فساد اللّحوم مبكّرًا، وبالتالي تقلّل من خطر الكائنات المسبّبة للأمراض بسبب الحرارة. وتقوم التوابل الحارة داخل الأطعمة بدور تطهيري ضد الجراثيم.

غير أنّ هذا الوضع المفيد للنّاس العاديّين يشكل خطرًا هاما على الحوامل، لأن أغلبية التوابل تحتوي على سموم طبيعية إلى جانب مواد مضادة للجراثيم، ومن المحتمل جدًّا أن تُلحق هذه السمومُ الطبيعية التي تتميّز بخاصية "التحْويل الوراثي" ضررا بالبرنامج الجيني للجنين الذي يسجّل نموًّا عبر انقسام سريع في الخلايا. وتشعر المرأة الحامل باشمئزاز وغثيان ضدّ الأطعمة ذات التوابل، وبذلك يحتمي الطفل من أخطار التوابل المتوقعة، بينما تتبدَّد أضرار هذه السموم لدى الكبار وغير الحوامِل من قبل الأنزيمات المضادة للسموم والتي توجد في السيتوكرومات الموجودة في الكبد. كما أنّ عدم امتلاك غير الحامل عضوًا مثل الجنين الذي يكبر بسرعة كبيرة، ويكون حساسا إزاء مؤثرات التحول الوراثي (الموتاجينية) يعتبر آليةً وقايةٍ إضافية.

## خطورة البكتريا على الحوامل

والأغذية التي لا تشتهيها النساء الحوامل ويشعرن ضدّها باشمئزاز أكثر خلال فترة الحمل هي اللحم والسمك والدجاج والبيض بالدّرجة الأولى، لأن هناك احتمالا كبيرًا أن تحتوي هذه الأغذية على البكتيريا والكائنات الطفيلية (إذا استثنينا حالات الصّيانة الصحية الحديثة والتغليف الغذائي الجيد). ومثلا نرى في بدايات فساد الأغذية أنها تحمل طفيليّات تكسوبلازما بارازيتينا وهي طفيليات وحيدة الخلية وتنتقل إلى الإنسان من القطط. وإذا تناولتها الأم مع الأغذية في بدايات الحمل فإن ذلك يؤدّي إلى إصابتها بالعدوى وإلى إسقاط جنينها. ومن هذه الناحية نرى أنّ الوحم الذي يظهر في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل هو نظام دفاعيّ فطري يحمي الطفل من هذه الأخطار كلّها. وقد أصبح الكثير من الأطباء يقرّون اليوم أنّه من الخطأ تسمية الوحم الذي يسمى بالأنجليزية "morning sickness" (بمعنى "مرض الصبح") مرضًا، لأنّ الوحم ليس مرضًا، وإنما هو واقع تناغم فيزيولوجي تتجلى فيه الرّحمة والعناية نحو الطفل بكل وضوح. وهذا يعني أنه لا حاجة لتناول النّساء الحوامل أدوية ضدّ الغثيان.

## الوحم نعمة إلهية

ونحن نشعر اليوم بحزن شديد إزاء هؤلاء النّساء اللواتي اعتبرن هذا الوضعَ مَرَضيًّا في الماضي وتناولن أدوية مختلفة ممّا أدّى إلى إنجاب أطفال معاقين. ويا ليت هذه الأبحاث كانت أُجريت قبل هذا الوقت ليُكتشف أنّ الوَحم كان نعمةً إلهيّة. ويتضح أنه من أجل ذلك، ينبغي تغيير نظرتنا إلى الكون والإنسان في كل شيء.

وخلاصة القول، في ضوء المعلومات المذكورة سابقا يجب عدم اعتبار الوحم الذي يظهر في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل مرضًا، بل ينبغي اعتباره مؤشرا لاستمرار الحمل بشكل طبيعي، حيث يتضح من ذلك أن التغييرات النفسية والفيزيولوجية مع بداية حمل المرأة هي مظهر لتجلّي رحمة الخالق العليّ وشفقته إزاء الجنين والأم معا. وتزول شكاوى الوحم في الغالب بعد الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل لانقضاء فترة الخَطر حيث تختفي الضغوط على منظومة المناعة في جسم المرأة ويكتمل نمو أغلبية أعضاء الجنين، وبذلك تَعُود الأم إلى تناول الأغذية على النحو المعتاد. ■

---

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى ستيتي.



# البناء التربوي لتلميذ القرآن

أ.د. زغلول النجار*

إن استكمال البناء التربوي للمسلم بصفة عامة ولحامل القرآن الكريم بصفة خاصة يقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ﷻ. ويمكن إيجاز ذلك في النقاط التالية:

**١-الاستخلاف في الأرض**

إن الإنسان هو عبد من عباد الله تعالى خلقه من طين، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكرمه واستخلفه في أرضه، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً. وعلى ذلك فإن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة هي صفة أساسية من صفات الإنسان، وضرورة من ضرورات وجوده؛ فهي التي تعينه على فهم رسالته في هذه الحياة، وهي رسالة ذات شقّين: عبادة الله تعالى بما أمر، والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله ﷻ فيها، وهذا لا يمكن أن يتم بغير علم والتزام. ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم.

**٢-الإنسان كيان روحي**

الإنسان جزء من هذا الكون المادي، ولكنه يختلف عن الكون المادي بأنه -بالإضافة إلى جسده المادي- هو كيان روحي عاقل، قادر على التفكير وعلى إدراك ما يفكر فيه، وعلى التعبير عن تفكيره ومشاعره ببيان واضح.

والإنسان يحس في نفسه معاني وقيمًا للأشياء والأفعال تجعله يستطيع إدراك ذاته، وتجسيد تلك الذات تجسيدًا يجعلها متميزة على كل ما سواها من الكائنات الحية الأخرى، رغم ما بينه وبينها من شبه في البناء؛ فهو أعلى المخلوقات مرتبة، وآخرها وجودًا، وعلى ذلك فهو جامع لكل صفاتها، ومتميز

عليها بالقدرة والاختيار والتكريم، فهو الكائن الحي العاقل القادر المختار المُكلَّف الذي وصفه خالقه سبحانه وتعالى بقوله العزيز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠).

على ذلك فالإنسانية في الإنسان ليست بجسده المادي المعقّد، ولا بصفاته التشريحية الخاصة، إنما الإنسانية فيه هي القدرة التي وهبها له خالقه ﷻ على الارتقاء بنفسه إلى الدرجة التي تؤهله لاحتمال تبعات التكليف، وأمانة المسؤولية -خاصة إذا كان من حملة كتاب الله- حتى يصل إلى المقام الخاص به، وهو الاجتهاد في تحقيق الكمال الاختياري الواعي بإرادته وعزيمته وصبره، وبهداية كتاب ربه. وهذا لا يمكن الوصول إليه بغير تربية وبغير علم وفهم وهداية وأخلاق والتزام، وبغير مجاهدة للنفس.

وعلى ذلك فالتربية في الإسلام تربية شاملة لكل مكونات الإنسان، وقدراته ومواهبه، وهي ليست عملية محدّدة بزمان ومكان. وإذا لم يتلقَّ الإنسان قدرًا كافيًا من التربية فإنه قد يستخدم هذه الإرادة الحرة في الخروج عن منهج الله، والإفساد في الأرض.

### ٣-أصالة الخير في الإنسان

إن الخير أصيل في الإنسان، والشر طارئ عليه، وقد وهب الله الإنسان القدرة على التمييز بينهما، والإنسان يولد على الفطرة التي يزكيها حمْل كتاب الله، وإحياء سنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:٣٠).

ثم تتفاعل قابليات الإنسان وميوله وقدراته مع المجتمع الذي يربَّى فيه، فتنمو في الاتجاه الصحيح أو الخاطئ حسب ما يتلقى من توجيه، ومن هنا تتضح أهمية التربية الصالحة، ودورها في توجيه العقل لاستخدام قدراته كلها في الخير وليس في الشر، وهذا هو دور أساسي من أدوار التربية الإسلامية خاصة مع حاملي القرآن الكريم.

### ٤-فطرية القيم عند الإنسان

إن قمّة الخير في الإنسان، ووسيلته إلى إنمائه هي خضوعه بالعبودية لله وحده؛ لأنه إذا لم يخضع بالعبودية لله كان جبارًا عاتيًا في الأرض، يستخدم كل نعمة وهبها إياه الله في الاستعلاء والتجبر والإفساد في الأرض، أو يكون عبدًا لغير الله، وهذه صورة من صور الإذلال الإنساني الذي يتنافي مع تكريم الله لبني آدم؛ ومَن أجدر بتوحيد الله تعالى من حامل كتابه؟!

ومن سمات التوحيد الخالص لله الخالق ﷻ أن يؤمن الإنسان بأنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، ومن ثم فالعبودية لغيره تعالى هي إهدار لكرامة الإنسان، وإذلال لإنسانيته، وهي صورة من صور الشرك الذي حرّمه الله تعالى وجعله المصطفى ﷺ من الكبائر، ومن السبع الموبقات المهلكات.

فمن الخير الفطري في الإنسان بصفة عامة وفي حامل القرآن بصفة خاصة تلك القيم الكبرى التي فطر الله ﷻ الإنسان عليها، ومنها حب الحق، وحب الخير، وتذوق الجمال الحسي والمعنوي، وهذه في المخلوقات انعكاس لعظمة القدرة المبدعة، ودلالة على الخالق العظيم الذي هو الحق والخير، وهو مسبغ كل صور الجمال على الإطلاق. فالله تعالى هو مصدر كل القيم العليا، وهو سبحانه غايتها.

وواجب التربية الإسلامية أن تحافظ على الفطرة الإنسانية السليمة، وأن تعمل على تنميتها وتزكيتها باستمرار خاصة مع حامل القرآن الكريم؛ فالتعليم بدون تربية وتزكية تعليمٌ ناقص، فهذا هو سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء وولده إسماعيل عليهما السلام يدعوان الله لذريتهما من بعدهما فيقولان: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٩).

### ٥-التربية الإسلامية والمجتمع الإنساني

إن الإنسان الفرد هو عضو في جماعة تظل تتسع حتى تشمل الإنسانية كلها بما فيها أسرته وأهله، ومجتمعه وبلده وأمته والعالم بأسره. فهو مرتبط بهذه الجماعات كلها بارتباطات شتى، وله عندها حقوق، كما أن عليه تجاهها واجبات، ولا تستقيم الحياة في هذه الدنيا إلا بقيام اتزان دقيق بين حقوق الفرد وواجباته تجاه الجماعة، وهو أمر من صميم العملية التربوية، ومن صميم الإسلام. وهو من الأمور التي لا يُكتَفى فيها بالتلقين، وإنما لا بد لها من أن تغرس في النفوس بالممارسة الفعلية وباتباع القدوة الحسنة، والتزام أوامر الله واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده التي وضعها لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقات كل منهم بالمجتمع الإنساني كله وعلى اختلاف أبعاده، خاصة إذا كان المربى من حملة القرآن الكريم.

والتربية الإسلامية في ذلك لا يمكن أن تكون عملية إقليمية ضيقة، تحدها حدود الأرض، أو فواصل اللغة، أو اختلاف اللون وتنوع الجنس؛ فهي تسعى إلى بناء الإنسان الصالح لتبني به المجتمع الإنساني الصالح، وهو مجتمع لا بد أن يكون مجتمعًا متعلما متبصرًا، يستشعر الفرد فيه معنى الأخوة الإنسانية، ويعتزّ به،

ويصونه ويحافظ عليه. وعلى ذلك فالمساواة في التعليم الإسلامي بين عناصر الجنس البشري كلها أمر واجب لا فرق في ذلك بين أبيض وأسود، ولا بين ذكر وأنثى، فكلهم مطالبون بعبادة الله وتقواه، ولا عبادة بغير علم وهدى والتزام.

### ٦-الاهتمام باختلاف الملكات عند الأفراد

إن الأفراد متفاوتون في قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم، وإن كان ذلك بمثابة ابتلاء واختبار إلا أن هذا التفاوت بين الأفراد لا بد وأن يؤخذ بعين الاعتبار في العملية التربوية، فلا يكلف إنسان فوق طاقته. ومن ثم فالتربية في الإسلام تربية فردية، لا تُحدّ في قوالب موحدة جامدة تفقدها طبيعتها الإنسانية، بل تتركها لحسن تقدير المربِّي وقدرته على توجيه الملكات الخاصة لكل طالب، وعلى حسن قبول الطالب لتوجيه مربيه لما يربطهما من صلة نورانية أساسها خشية الله تعالى والعمل على مرضاته، وما أجمل ذلك في حلقات تعلم كتاب الله!

### ٧-تكامل المعرفة التربوية

إن مصادر المعرفة الإنسانية في الإسلام هي الوحي السماوي المُنزَّل، والمعارف والتقنيات المكتسبة، والتراث البشري الموروث في هذين المجالين. وعليه فإن التربية الإسلامية لا بد أن تستمد منهجها ومحتواها من كلٍّ من وحي السماء وميراث المعارف والتقنيات المكتسبة، فإهمال أيٍّ منهما لا يمكن أن يؤدي إلى معرفة متكاملة نافعة أو إلى تربية سليمة، ومن هنا كانت ضرورة إلمام حافظ القرآن الكريم بالمعطيات الكلية للعلوم حتى لا ينعزل عن عصره.

### ٨-الوحي الإلهي وآثاره التربوية

إن وسيلة الإنسان إلى العلم السماوي هي وحي السماء المُنزَّل على عدد من الرسل والأنبياء، والذي تَجمَّع واكتمل وحفظ في الرسالة الخاتمة المتمثلة في القرآن الكريم وفي سنة الرسول الخاتم ﷺ. وقد تعهد ربنا تبارك وتعالى بحفظهما، فحُفظا حفظًا كاملاً في نفس لغة الوحي بهما (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية، وتعهّد تعالى بهذا الحفظ تعهدا مطلقا حتى يبقيا حجة على الناس كافة إلى قيام الساعة، وهنا يتضح فضل حامل القرآن الكريم.

وعلى ذلك فإيمان الإنسان برسالة السماء هو ضرورة من ضرورات علمه، بل من ضرورات وجوده؛

أ- فهو من ضرورات علمه لأن العلم الذي لا يستطيع أن يجيب على تساؤلات أساسية في حياة الإنسان -مثل من هو؟ من الذي خلَقه وأرسله إلى هذه الحياة؟ وما هي رسالته فيها؟ وكيف يمكن له أن يحقق تلك الرسالة على الوجه الأمثل؟ وما مصيره بعد هذه الحياة؟- هو علم ناقص حتى ولو وصل بالإنسان على القمر، وجاب به في الفضاء، وفجَّر له أسرار الذرة، وسخَّر له مختلف طاقاتها.

ب- والإيمان بوحي السماء هو من ضرورات وجود الإنسان لأنه لا يستطيع أن يضع لنفسه نظامًا شاملاً كاملاً ينظم حياته وعلاقاته أفرادًا وجماعات، ودولاً وأممًا، ومجتمعًا إنسانيًّا واحدًا على أساس من الحق والعدل، دون ميل شخصي، أو هوى نفسي مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يحدد تفاصيل رسالته في هذه الحياة، ولا أن يدرك مصيره من بعدها بعقله منفردًا. ومن هنا كانت ضرورة رسالة السماء ليهتدي بهديها الإنسان في القضايا التي لا يستطيع أن يصل فيها بجهده إلى أية تصورات صحيحة. ولذلك بعث الله الرسل والأنبياء بدينه الحق، وطالب الناس بالإيمان بهذا الدين الحق وإقامة حكم الله في الأرض على أساس منه.

وآخر الرسالات السماوية هي رسالة سيدنا محمد ﷺ الذي جعله الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل أعظم معجزاته القرآن الكريم، وتعهد بحفظه فبقي سليمًا من الضياع ومن التحريف والتبديل. ومن هنا فإن التربية في الإسلام تقوم على أساس من القرآن وهديه، وتعاليم رسولنا الكريم وسنته، وربط ذلك بواقع الأمة في كل زمان ومكان، ومن أجدر بذلك من حامل القرآن!

وعلى ذلك فإن اهتمام السلف الصالح من المسلمين بتحفيظ أبنائهم وبناتهم القرآن الكريم في سن مبكرة كان عملاً أساسيًّا في تربيتهم، به تكونت عقيدتهم وأخلاقهم، وانضبط سلوكهم ومعاملاتهم، وعمُق إيمانهم وصلتهم بخالقهم، وزاد فهمهم لرسالتهم، وسادوا الدنيا بهذا الفهم وملَؤوها علمًا وعدلاً ورحمة وإنسانية، وبه تمكّنوا من لغتهم، وحفظوا رسالة ربهم، ولا يزال ذلك هو الأسلوب الأمثل في تربية المسلم على الرغم من الاعتراضات التي وُجِّهت -ولا تزال توجه من أعداء الإسلام وأبواقهم- إلى ذلك النهج في تربية الصغار؛ وذلك لأن حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة تتميز فيها الذاكرة بصفائها هي عملية سهلة ميسرة. والقرآن -بالإضافة إلى كونه ذخيرة علمية ودينية ولغوية وتربوية وأخلاقية وسلوكية- هامّة لحامله حتى ولو لم يع ذلك وعيا كاملا في سن مبكرة، فإنه ينمو -بالقطع- مع نموه العَقلي والجسدي، ويبقى ذخيرة له في دنياه كما هو ذخيرة له في آخرته. فالتربويّون اليوم يجمعون على أن للمفردات

والتراكيب الجميلة التي يحفظها الطفل في صغره صلة كبرى بنمو الطفل العقلي والفكري، والأخلاقي والسلوكي بنموّ قدراته على البيان. وهل هناك أبلغ من بيان الله في القرآن الكريم؟!

### ٩-العلم والحكمة في الممارسة التربوية

إن العلوم الكونية في منهج التربية الإسلامية شيء أساسي، ولكن العلم بها ليس علمًا ماديًّا مجردًا عن الحكمة، فتعرّف الإنسان على الكون ضرورة من ضرورات وجوده؛ لأنه بذلك يتعرف على الظواهر الطبيعية والسنن التي تحكمها، ويضع الفروضَ والنظريات اللازمة لذلك، ويستنتج القوانين للمطرد منها. ونتاج ذلك تعرّفُ الإنسان على مصادر الخير المادي في هذه الحياة، فيستفيد بها وينمّيها بسد حاجاته وحاجات بني جنسه، وتعرّفه على شيء من قوانين الكون وسننه مما يعينه على تسخيرها في عمران الحياة على الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها، وهذا مجال العلوم البحتة والتطبيقية أو ما يسمى بالعلوم الكونية، والتي يجب على حامل القرآن الكريم أن يلم بشيء من المعطيات الكلية لها.

وهذه العلوم في التربية الإسلامية ليست فقط حقائق وأرقامًا، ومعادلات مجردة من الحكمة، فإن دلالتها المعنوية أكبر منها. ومن هنا كان لزامًا على المسلم أن ينظر في كل شيء وفي كل أمر بعين الاعتبار، وهو حاضر القلب، متفتح الحواس، جاد في محاولة الوصول إلى المعرفة، وإلا أتت معرفته معرفة حسية فقط، معرفة بمادة الأشياء، وهو أقل ما يمكن للإنسان أن يدرك منها؛ فالمسلم حين ينظر في الكون متأملاً دارسًا متفكرًا يدرك أن الكون بكل ما فيه ومن فيه خلق بالحق، ولأجَل مسمى، وأن لكل شيء طبيعته الخاصة، وقوانينه الثابتة، ووظيفته المحددة وغايته المرسومة، وأن الكون لم يخلق عَبَثًا. وكذلك يجب أن تكون حياة الإنسان نظامًا ودقة وعملاً وفهمًا ينسجم مع قوانين الكون وسننه، وإلا أتت حياة الإنسان شاذة عنها، خارجة عليها، متعارضة معها.

والكون للمسلم هو كتاب الله المنظور، يرى فيه عظمة الخلق، ودقة البناء، وانتظام الحركة، وإتقان الصنعة، فيدرك من ذلك جانبًا من صفات خالقه العظيم، ويتعلم عددًا من الشروط الواجبة للنجاح في هذه الحياة، ويرى في الكون وحدة في البناء تنطق بوحدانية الخالق العظيم، ويرى فيه أنه مستحدث فان، كانت له في الأصل بداية بدأها الخالق البارئ المصوّر ويحاول العلماء حسابها، وسوف تكون له في يوم من الأيام نهاية هي بيد الخالق ﷻ وحده، ويرى الإنسان من كل ذلك أنه في كل لحظة من لحظات وجوده هو محتاج إلى رحمة الله ورعايته، وإلا هلك وهلك كل ما في الكون ومن فيه.

ويؤكد لنا ربنا ﷻ أن وجود الإنسان في هذه الحياة هو لغاية محددة، فيقول عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). ويوضح ربنا جلّت قدرته أن هذه العبادة ليست مقصورة على طقوس دينية محددة، بل إن الاجتهاد في عمران الحياة على الأرض عبادة، وطلب العلم عبادة، والعدل بين الناس عبادة، والسعي في مصالح الخلق عبادة، فيقول ﷻ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٠٥).

والمعرفة في التربية الإسلامية لا تنفصل عن الحكمة فهُمَا من وسائل الإيمان الراسخ. والإيمان الراسخ يصدقه العمل الصالح، ولذلك قرن ربنا ﷻ الإيمان دوما بالعمل الصالح في محكم كتابه فقال: ﴿الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وكلٌّ من الإيمان الصادق والعمل الصالح يؤدي إلى التزكية المستمرة للنفس الإنسانية حتى تصبح نفسًا مطمئنة، وكلها من وسائل التربية الإسلامية. ومع إيمان هذه التربية الإسلامية بالتخصص الدقيق، ويقينها من فوائده، فإنها لا تعرف فصلاً متكلّفًا بين معرفة بالله ومعرفة بما خلق الله، أو بين دراسات دينية منعزلة انعزالاً كاملاً عن المعطيات الكلية للعلوم، أو معارف كونية منفصلة عن وحي السماء، أو بين علوم بحتة وتطبيقية منعزلة انعزالاً تامًّا عن بقية المعارف الإنسانية. فالمعارف كلها في التربية الإسلامية تلتقي على غاية واحدة هي معرفة الله تعالى وعبادته بما أمر، وحين القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. ومصدرُها في هذه المعرفة هو: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومجالُها الكون كله، والإنسان بمختلف أبعاده، والحياة بكل أشكالها وألوانها ومستلزماتها، ومنطلقُها ذلك التصور الإسلامي الصحيح عن الإنسان والكون والحياة وعن معنى "لا إله إلا الله". ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في الدراسات الكونية. ولذا فإننا نجد القرآن الكريم -ومنذ أربعة عشر قرنًا- يحضّ الناس حضًّا على الاهتمام بالنظر في الكون وفي كل مكوناته وأجزائه، وما به من مختلف صور المادة والطاقة والأحياء والظواهر المصاحبة له، وعلى الأخذ بأسباب ذلك كله للتعرف على الله والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض.

وعلى ذلك فالتربية في الإسلام يقترن فيها العلم بالإيمان، والمعرفة باليقين، وكلها وسائل للتعرف على الله ﷻ وعلى بديع صنعه في خلقه، حتى يستطيع الإنسان المسلم أن يقوم بواجبات

الاستخلاف في الأرض بنجاح، ويحقق رسالته في هذه الحياة على الوجه الأكمل خاصة إذا كان من حملة كتاب الله.

### ١٠-التربية فن وعلم تطبيق

إن العلـــم النافع يصدقه العمل النافـــع، كما أن الإيمان الصادق مقرون بالعلم الصالح، فلا تكفي عقيدة وعلم مجردان عن العمل النافع الصالح، فهذا رســـول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع فيقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ودعاء لا يســـمع، وقلب لا يخشـــع، ونفس لا تشبع، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع" (رواه مسـلم). "العلم علمـــان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللســـان، فذلك حجة الله عز وجل على ابن آدم"(رواه الترمـذي). ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه نظر إلى مصلين فقال: "... ولا يغرّني كثرة رفع أحدكم رأسه وخفضه، ما الدين إلا الـــورع في دين الله، والكف عن محارم الله، والعمل بحلال الله وحرامه" (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر).

وعليه فإن التربية في الإسلام ليست مجرد كلام يلقّن، أو نظريات تطرح في معزل عن مجال التطبيق وواقع الحياة، إنما هي ممارســـة فعليـــة تتحد فيها كل الأخلاق والقيم والحكمة التي تقوم عليها، وتتحقق فيها القدوة الحسنة في المربي، والاتباع الفطن في المتربي.

### ١١-التربية ضرورة إنسانية وليست ترفًا فكريًّا

إن التربية في الإســـلام ضرورة إنسانية تُقصَد لذاتها، لا للمردود المادي أو الاجتماعي الذي يمكن أن يعود على الإنسان من وراء تحصيلها، وإن كان ذلك في حد ذاته ليس مستنكرًا؛ لأن الأصل في التربية الإســـلامية أن تكون تأهيلاً للفـــرد لكي يكون قادرا على تنمية نفســـه وأســـرته ومجتمعه، لا لمجـــرد الترف الفكري المنفصل عن التطبيق في الحياة، بل من أجل تحقيق الاستخلاف في الأرض القائم على العمل الدؤوب من أجل التنمية الشاملة للفرد وللمجتمع وللحياة. فالإنسان الفرد عمره محدود، وهو محاسَب عن كل مال وصل إلى يديه.. من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ ثم إن له بعد هذه الحياة الموت، ومن بعد الموت البعث والحســـاب، ثم حياة أخرى خالدة يلقى فيها جزاء ما قدمت يداه في هذه الدنيا.

هذه الصورة الإسلامية الصادقة للوجود الإنساني بصفة عامة ولحامل القرآن الكريم بصفة خاصة تجعل له معنى لا يمكن أن يتحقق إذا كانت حياته مقصورة على هذه الدنيا فقط، ولذلك فإن التربية الإسلامية تبعث في الإنسان الضمير الحي الذي يحاسبه دوما قبل أن يحاسَـــب، ويَزِنُ عليه أعماله قبل أن توزَن عليه في عملية من المراجعة الذاتية الآنية المستمرة التي تعمل على تطهير قلبه وتزكية نفسه، وتدفعه إلى المسارعة في عمل الخيرات باستمرار، في شمولٍ وكمال تعجز كلُّ النُّظُم التربوية الأخرى عن تحقيق شـــيء منه.

### ١٢-فلسفة التربية الإسلامية

هذا التصور الشـــامل الكامل للإنســـان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله، يمثل أســـاس التربية الإســـلامية، فهذا الخالق العظيم متفرد في وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، بغير شـــريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومنـــزه تنـــزيهًا كاملاً عـــن كلٍّ من المادة والطاقة والمـــكان والزمان... فهذه كلها من صفات المخلوقين. والخالق جلّ في علاه منـــزه عن جميع صفات خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـــيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١)، فهو قديم لا أول له، باقٍ لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شيء عن علمه، عادل لا يفلت ظالم من حكمه، متصرف لا يخرج شيء عن مشيئته، حكيم تتجلى في كل شيء حكمته، رحيم تعمّ الكونَ رحمتُه، ورعايته وعنايته، هو الكبير المتعال الأول والآخر، والظاهر والباطن، سبحانه له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

هذه بإيجاز هي فلســـفة التربية الإسلامية، وهي فلسفة تقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان ورسالته في هذه الحياة، عبدًا لله، خلقه تعالى لعبادته، واســـتخلفه في الأرض للقيام على عمارتها، وللعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وعلى إقامة عدل الله فيها.

وتقوم التربية الإسلامية على أساس من الفهم الصحيح للكون ودلالاته، ولعلاقة الإنسان به، وبخالقهما معًا وهو الله، وهذا كله ينعكس بوضوح في تحديد أهداف التربية الإسلامية، ويتراءى في وسائلها، وفي رســـم منهجيتها، وينعكس أجمل ما ينعكس على حامـــل كتاب الله الذي يجب أن يكـــون ملمّا بالمعطيات الكلية للمعارف في عصره، ملتزما بتعاليم الكتاب الذي شرّفه الله بحمله، قادرا على الدفاع عنه بلغة العصر وبالحكمة والموعظة الحسنة حتى يفعل ما يحمل في قلبه من أنوار القرآن الكريم، ولا يتم له ذلك إلا لفهم دلالات الآيات القرآنية التي يحملها، وإدراك مختلف جوانب الإعجاز فيها حـــتى يدرك فضل القرآن الكـــريم على غيره من الكتب، وفضل الإسلام العظيم على كل ما سواه من معتقدات. ■

(*) أســـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـــؤون الإسلامية / مصر.

**الحريـة هـي عـدم قبـول الـروح سـوى المشـاعر العُلويـة والأفـكار السـامية، ولا تعنـي الإسـار لأيّ مبـدأ سـوى مبـدأ الخيـر والفضيلـة.**

* * *



# نفخ الروح...
# متى تبدأ حياة الإنسان؟

أ.د. أُولكُون هَاسْكُول*

تعد محاولـة تحديد النقطة التي تبـدأ عندها حياة الإنسـان واحدة من أكثر الموضوعات التي احتدم الجـدل حولها في الأخلاقيات والعلم والفلسـفة الحديثة. والحقيقة أن نتائج هذه المناقشـة مـن الأهمية والحيوية بمكان، لأنهـا تمكننا من صياغة الأسـباب الحقيقية حول بعض المسـائل الخاصة بالأخلاقيات العلمية مثـل الرؤية الأخلاقية بل والقانونية تجاه الإجهاض وبحوث الأجنة.

ولقد أطال علماء وفلاسفة كثيرون وأطنبوا في الحديث حول تعريف الشخصية ومتى تبتدئ حياة الشخص الحقيقية، وبالرغم من هذا فلم يخرج لنا أحد بتعريف مقبول حتى الآن.

والحقيقة أن هناك دافعا ما في هذا المجال يدفعنا أن نلتمس من العلم اختيار تفسـير من بين التفاسير المستقاة من الآراء المختلفة، وبين تلك التي تقوم على أسـاس المعتقـدات. بيد أن كلا من الاثنين لا يعـارض أحدهما الآخر؛ أما نحن فقد قادنا التفكير إلى الاعتقاد بأن الإجابة على السـؤال عن بداية الحياة يتطلب تعاونا بين شـتى مناحي المعرفة. وهذا الاعتقـاد -بطبيعة الحال- قادنا إلى نقطة وجدنا أنفسـنا فيها بين الدين والعلم وهو ما يحتاج إلى استكشـاف واعٍ؛ لذا كان المقصد من هذه المقالة استكشـاف

الأمر من وجوهه المتعددة.

ويوضح ماســون وماكال سميث أن ما يعد بداية التحول إلى كائن حي هو قرار أخلاقــي بالدرجة الأولى. فمعظم النصوص الدينية تذهب إلى أن ما يجعل الجنين إنســانا حيا هو نفخ الروح فيه، وحين تلتقي الروح بالجسد يتخلق منهما الكائن الحي الذي تجب له كل الحقوق وأبسطها حق الحياة.

في ضوء هذه الاعتبــارات كان علينا أن نبحث عن الوقت الفعلي لنفخ الروح حتى يتسنى لنا منع أنفسنا من قتل "أشخاص أحياء" ســواء بالإجهاض أوبالبحث في مجال استنساخ الأجنّة؛ فالغرض من الدراســة الحالية هذه إذن تحديد موعد بدء سريان الحياة في جسد الإنسان في أثناء مراحل تطوره.

إن توفــر الخلايا الجذعية[1] الجنينية والتي تؤخذ من الكائنات الثديية ربما يفتح آفاقا جديدة لعلاج الأمراض المســتعصية. فهذه الخلايا لها قدرة التأثير على أعضاء مختلفة، وباستطاعتها توليد أي خلية –باستثناء خلايا المشــيمة– كما أنها باقية (أي لا تهلك)؛ غــير أن توليد هذا النوع من الخلايا يتطلب التدمير المبكر للأجنة البشرية، وهنا تبرز لنا الأســئلة الأخلاقية نفسها، وتصعد على الســطح الصراعات التي تســمع غالبا حــين توضع أخلاقيات الإجهاض على طاولة المناقشة. فأغلب الناس المنخرطين في حركة "مع الحياة" يعتبرون الجنين إنســانا كامــلا له روح وله حقوق كتلك التي تجــب لأي مواطن ومنها حق الحياة. لذلك كان أي عمل يجرح أويقتل الجنين بمثابة جريمة قتل. وعلى الرغم من هذا يــرى الكثيرون من أعضاء حركة "مســاندة الاختيار" أن بداية الحيــاة تتم في مراحل متأخرة من الحمل. وعليه فإن قتل جنين تم تخصيبه حديثا لا يعد في عرفهم قتلا لإنسان.

لكــن ما حال الجنين الذي عمره أيام معدودة إذن؟ هل هذا الجنين حي؟

## الجنين متى يكون حيًّا؟

نعم، فمنذ بدايتــه يعتبر الجنين حيا وليس لأحد أن يعترض على هذا؛ لكن هل يعد الجنين حينئذ كائنا حيا كاملا؟ إذا اســتطعنا أن نمسك بالجنين في مراحله الأولى قبل أن يصبح كائنا، سيكون بمقدورنــا أخذ الخلايا الجذعيــة دون أي قلق. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن سريان الحياة يبدأ في الجنين حين تبدأ أنظمة هذا الجســد في العمل كوحدة متكاملة، قرب انتهاء المرحلة الجنينية.

وباعتبار أن عملية الانقسام (التوأمة) تحدث بعد حوالي ١٤ يوما بعد الإخصاب، وأن هذه العملية تنتج لنا شــخصين وليس مجرد شخص واحد، فيمكن أن يسمي هذا بمرحلة ما قبل الجنينية، أي المرحلة التي لم يتحدد فيهــا الجنين الواحد بعد؛ وفي هذا الإطار تعرّف لجنــة الأخلاقيات التابعة للجمعيــة الأمريكية للخصوبة "الجنين" على أنه ما يتميز عن "ما قبل الجنين" تأسيسا على العلوم الطبية والسوابق القانونية.

وطبقــا لهذا التقرير إضافة لتقرير "وارنوك" الذي كان خلف تشريع التخصيب البشري وعلم الأجنة في عام ١٩٩٠م، تستمر مرحلة ما قبل الجنين لمدة ١٤ يومًا بعد التخصيب، ويجب احترام هذا الكيان دون إعطائه الحماية المطلقة.

والآن وتأسيســا على هذه التقارير والتشريعات التابعة لها يســمح بإجراء البحوث على الأجنة حتى اليوم الرابع عشر فقط وحتى تتكون ما يســمى بالخط البدائــي أو بداية الجهاز العصبي والذي يستحيل بعده حدوث التوأمة أو عملية الانقسام.

## النظرة المسيحية

والحقيقة أن المراجع النصرانية في هذا المضمار غنية وشــيقة، غير أنهــا يمكن قراءتها بطريقتين؛ فيعــد الإجهاض في أي مرحلة من مراحله كبيرة من الكبائر؛ غير أنه وعلى مدى قرون عديدة اعتبر إنهاء الحمــل في مرحلة مبكرة أخف جريرة منه في مراحل تالية. وتم عزو هذا إلى الرؤية القائلة بأن الروح لا تدخل الجسد إلا بعد أربعين يوما من الإخصاب وهو المفهوم المستقى من أرسطو.

لذلك يمايز العديد من النصارى بين الموقف الأخلاقي من الجنين المخلق وغير المخلق، ويعتقدون أن الكائن الحي لا يكتمل إلا بعد نفخ الروح والتي تتم في مرحلة تالية؛ أما بالنسبة لبعض النصارى الآخرين، فالتخصيب هو النقطة الــتي تبدأ عندها الحياة أصلا.

## النظرة القرآنية

وبينما كنــا نبحث وننقب عن الوقت الــذي تبتدئ فيه الحياة حقيقة وجدنا قول الله تعالى يخبرنا بوقت نفخ الروح في الجســد حيث يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَــوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَــأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَــنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٤) وتبين هذه الآية أن مرحلة الجنين تتكون فيها العظام أولا، ثم تتشــكل العضلات ويتم هذا طبقا لتطور علــم الأجنة حيث تبدأ العظام في التكون

كبنيان قوي في الأسبوع السابع، ثم تتشكل العظام وتغطيها في الأسبوع الثامن من مراحل تطور العضلات التي تخرج من الخلايا البدنية الوسطى. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ويبين هذا الجزء الأخير من الآية الكريمة أن تكوين العظام والعضلات ينشأ عنه خلق آخر وهو ما قد يشير إلى بداية نفخ الروح بعد نهاية الأسبوع الثامن.

وفي هذه المرحلة يملك الجنين خواص بشرية مميزة وتتكون لديه صور بدائية لجميع الأجزاء والأعضاء الداخلية والخارجية، وبعد الأسبوع الثامن يطلق على هذا المخلوق "جنين" ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة:٩) وتؤكد هذه الآية ما سبق بيانه في الآية السابقة، وهو أن الروح تنفخ في الجنين بعد أن يتشكل؛ كما يبين هذا أن الحواس الخاصة كالسمع والبصر تبدأ في التطور بهذا النظام أي بعد نفخ الروح وهو ما يتفق أيضا وعلمَ الأجنة، وتتشكل الأذن الداخلية قبل بداية تشكل العينين، ويكون ذلك في حوالي الأسبوع العاشر أو الحادي عشر في مرحلة التطور. ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى أن الله تعالى يتحدث عن الجنين بضمير الخطاب ﴿لَكُمْ﴾ بعد نفخ الروح، بينما يشير إليه بضمير الغائب "الهاء" قبل نفخ الروح، وكأنه يشير من طرف خفي إلى أن الجنين في هذه المرحلة ما هو إلا شيء أو عنقود من الخلايا فقط.

لذا فنحن مع الرأي القائل بأن بداية الحياة الحقيقية تتم حينما يصل الجنين إلى الأسبوع التاسع، أي بعد اليوم السابع والخمسين، بعد أن تتشكل العظام وتتكون العضلات وقبل تشكل السمع والبصر؛ في هذا الحين فقط يتكون لدينا كائن متعدد الخلايا وليس فقط مجرد كتلة من الخلايا الحية المتلاصقة بعضها إلى بعض. فالروح تتطلب وجود مادة فردية. ولا يوجد مثل هذا كائن بشري له أعضاء؛ فالحيوان المنوي أوالبويضة اللذان يعيشان مستقلين في عزلة عن بعضهما البعض لديهما القدرة على إنتاج كائن، كما أن الجنين الذي هو عبارة عن مادة حيوية تحتوي على الحامض النووي الـ "DNA" له قابلية التحول إلى إنسان، وهو ما يعني أنه لم يصبح إنسانا حقيقيا بعد.

شيئان يمكنهما أن يصيرا شيئا آخر ولكن واحدا من هذين الشيئين أقرب لتحقيق هذا التحول من الآخر؛ لذا يقال إن الجنين أقرب إلى أن يكون كائنا حيا من مجرد الحيوان المنوي والبويضة.

من هنا يمكننا القول إن القدرة المعلوماتية للبويضة الملقحة (Zygote) والجنين في مراحله الأولى لا تكفي لتوجيه أي شيء خاص بالكائنات الحية ولا تكفي كمادة جينية ثابتة لكائن حي.

## الجسم البشري والروح

أما "جوزيف زايفرت" فهو يتعامل مع الجسم البشري والروح كمادتين غير كاملتين (أي نجد هنا فكرة "الثنائية" Dualism) واللتان تكتملان في الكائن البشري كمركب. وكأن هذه الرؤية تتطلب أن الروح بالنفخ في مادة ستكون هي المعدن لكائن بشري أو جنين تتطور أغشيته بما يسمح لوظائفه الإدراكية بالعمل. وتتوافق هذه الرؤية مع قولنا بأن الروح تضاف إلى جسد مادي موجود أصلا حين تبدأ الأعضاء والأنظمة الجسدية حديثة التشكيل في العمل سويا.

وإذا كان للروح أن تعمل عملها بعد أن تقوم العمليات البيولوجية بإنتاج حياة بشرية جديدة، في وقت محدد تمامًا لا تتأخر عنه ولا تتقدم عليه، فسيكون من الطبيعي أن يستتبع هذا حدوث النفخ في آخر المرحلة الجنينية والتي تنتج فيها بدايةُ عمل الجسد ككل -إضافة للمخ حديث التكوين الذي يعمل كنقطة مركزية لتبادل المعلومات- مستوى جديدا من الحياة، وتمكن العمليات التي تؤدي إلى كائن حي أن تأخذ طريقها في العمل.

## الفهم الأرسطي

وهذا التفسير البديل يتفق حقيقة ليس فقط مع الحقائق الطبية الحديثة وإنما مع الفهم التقليدي لعملية نفخ الروح الذي يدافع عنه العديد من رجال الدين الرومان الكاثوليك أصحاب الأخلاقيات والتي تستقي أيضا منابعها من أرسطو.

ورجال الدين هؤلاء يقولون بأن الروح لا توجد في الجسد حتى توجد مادة منظمة ملائمة. وبالرغم من هذا فإن بعض النصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام كان بشرا منذ لحظة الحمل، وعليه فكل جنين يصبح كائنا حيا منذ لحظة الحمل؛ بيد أن آخرين يرون أن عيسى عليه السلام كان استثناءً، بل إن الاعتقاد هو أن الأحداث التي صاحبت الحمل بعيسى عليه السلام ونموه سيبينها هو نفسه عند نزوله.

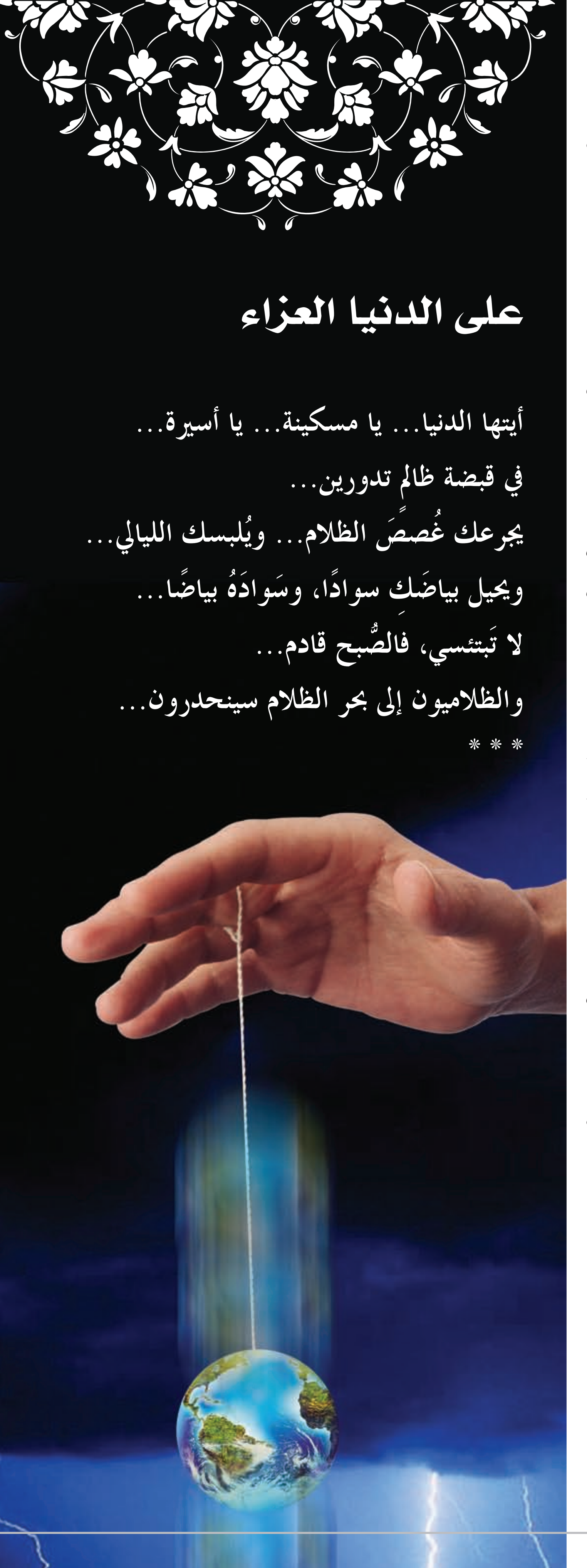
وعدم اعتبار الجنين كائنا حيّا له دلالته ومغزاه في مدى أخلاقية ومشروعية الاستخدامات المختلفة التي يمكن أن تؤثر على وضع وحال الجنين مثل حبوب الصباح (منع الحمل)،

والوسائل التي توضع داخل الرحم وتكفي لمنع الحمل عن طريق إيقاف التخصيب، والتخلص من الأجنة الزائدة، والتي تتكون أثناء عملية التخصيـــب المعملي، بالإضافة إلى أبحاث الأجنة.

ومـــن الصعب حقيقةً تبرير القيام بالإجهاض بعد حدوث الحمل ســـواء كان الكلام من وجهة نظر دينية أو غير دينية؛ بيد أن قضية الحديث عن الاســـتخدام الممكن للأجنّة المعملية الزائدة تجعل من عمليـــة نفخ الروح أمرا هاما. وحتى إن قيل إن النفـــخ لا يحدث إلا في مرحلة متأخـــرة من تطور الجنين فلا يكون هناك سبب لعدم اســـتخدام الأجنة الأخرى طالما أن الغـــرض هو علاج إنســـان لا يمكن علاجـــه إلا بطريقة اســـتخدام الأجنة؛ وهو بالطبع أمر أخلاقي بغضّ النظر عن الجانـــب الديني، فإن كان نفخ الروح لا يتم حتى يبدأ الكائن الجديد في اســـتخدام وظائفـــه كلية، فقرار عدم اســـتخدام أجنة المختبر هذه لأغراض طبية ســـيكون مســـؤولية كبيرة.

إن أبحاث الخلايا الجنينية لديها الكثير لتعطيه للبشرية كي تحفظ حياة أفراد وتنقذ آخرين وتعالج أمراضا مستعصية، وهو ما يجعل من الواجب بمكان أن نســـبر آفاقها ونضع لها المعايير والشريعة الأخلاقية. وفي الأغلب ستموت كل الأجنة الزائدة في العيادات في النهاية نظرا لخطأ المختبر أوالآلة، وستهلك هذه الأجنة عن طريق تجفيفها أو بطرق أخرى.

ولكن ربما يقوم هؤلاء باســـتخدام هذا البحث في خدمة البشرية ويجلبون لها النفع من خلاله. وإذا صح هذا الأمر فلن يكـــون هناك فقْدٌ في الأرواح، فما يتم تدميره في هذه العملية هو المادة البشرية الحيوية التي لم تنفخ فيها الروح بعد، ويمكننا حينئذ استكشاف آفاق استخدام الأجنة ومساعدة الأشخاص الذين أنهكتهم أمراضهم المستعصية، ومن هنا ندلف إلى الطبيعة ونجعل العلم مطية لمساعدة الآخرين وتخفيف آلامهم وتحسين صحة الإنسان. ■




---

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن الإنكليزية: بهاء الدين إبراهيم.

**الهوامش**

(١) الخلايـــا الجذعيـــة: بعد أن يتم تخصيـــب البوَيضة في الرحـــم تبدأ هذه البويضة المخصبة بالانقسام إلى ٢، ثم إلى ٤، ثم إلى ٨...الخ. من الخلايا. وقد لوحظ أننا إن أخذنا هـــذه الخلايا الأولية وقبل أن تنقلب إلى خلايا مخصبـــة (مثل خلايا العين أو خلايا الجلد ...الخ.) فإنها تدعى بـــ"الخلايا الجذعية"، ولها قابلية لتوليد أي نوع من الخلايا في الجسم.



# العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل في رسائل النور

أ.د. قطب مصطفى سانو*

إننا نحسب أن النظرة النورية إلى المسألة الغربية إذا نالت حظها من التحليل العلمي الرصين والتحقيق الفكري الشامل، فإنها ستسهم -إلى حد كبير- في إنقاذ العالم الإسلامي مما يجتاحه من محن وقلاقل وامتهانات لكرامته نتيجة انخداع وانبهار شطر كبير من مفكريه بالنظرات غير الدقيقة إلى المسألة الغربية. كما أننا نحسب أن انطلاق مهندسي سياسات العالم الإسلامي من النظرة النورية في رسم علاقة الأمة بالغرب بعجَره وبجَره من شأنها إنقاذ الجيل الصاعد من الناشئة مما هم واقعون فيه من انخداع وانهزام وتطرف في الرؤية والنظرة إلى المسألة الغربية، فضلا عن أنه من شأن الأخذ بتلك النظرة القيّمة فتحَ بابٍ واسع ومتين من الحوار والتواصل بين العالم الإسلامي والغرب، وذلك على أساس متين من القيم المشتركة المتمثلة في المبادئ السامية التي تقوم عليها الشرائع السماوية كلها.

## أوروبا بين النفع والضرر

في خضم تراكم الأحداث المفجعة، وتكاثر الابتلاءات الإلهية، يصعب للمرء أن يتكهن التزام المبتليْنَ الموضوعية والعلمية في النظرة إلى الغالبين، بل لا غرو أن يعلو التشاؤم والتبرم شفاه المغلوبين المهزومين، ولا عجب أن يغدو الانبهار والانخداع والولع بطريقة الغالبين مَنهلا ينهل منه المنهزمون، مصداقا لما قرره عالِم العمران الإسلامي المؤرخ ابن خلدون.[1]

والإمام بديع الزمان النورسي رحمه الله دفع بثقله الفكري والعلمي والمنهجي صوب كلتا النظرتين الانهزامية والانخداعية، فأوسعهما مراجعة وتقويما وتصحيحا، ودعا إلى التخلّي عن كلتيهما، كما أنه عنى -بطريقته الخاصة- اعتماد منهجية بديلة تنطلق من المنهجية والموضوعية وترتكز على الواقعية في النظرة إلى الأشياء، وتتبرأ من الانهزامية والانخداعية.

وسعيًا إلى مزيد من التحليل والتحقيق للنظرة النورية المحكمة إلى المسألة الغربية في ضوء ما عني به العالم الإسلامي من هزيمة وانسحاب إبان الحربين العالميتين، نرى أن نصغي إلى ما أدلى به الإمام البديع محددا الموقف الأحكم من المسألة الغربية في

كتابه "اللمعات"، حيث قال ما نصّه: ".. حينما سار "سعيد الجديد"[٢] في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية، فما كان من "سعيد الجديد" إلا القيام بتمخيض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة؛ فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوربا، فهي محاورة مقتضبة من ناحية، ومسهبة من ناحية أخرى. ولئلا يساء الفهم، لا بد أن ننبّه: أن أوربا اثنتان: إحداهما: هي أوربا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاورة- هذا القسم من أوربا؛ وإنما أخاطب أوربا الثانية، تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبتُ في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيتُ محاسن الحضارة."[٣]

وأما تاريخ هذه السياحة الروحية المعنوية، فإنه يعود إلى أيلول عام ١٩١٩م عندما دهى العالَمَ الإسلامي أمرٌ لا عزاء له، مهّدت لسقوط البقية الباقية من الخلافة الإسلامية في أقل من خمس سنوات، وقد ولّدت تلك الهزيمة النكراء شعورين متناقضين ومتضادين، أحدهما: الشعور باليأس والقنوط الذي دفع بالسواد الأعظم من الناس إلى التبرؤ من الغرب واستمراء العيش في كنف الماضي السليب، والتلذذ بترديد أمجاد ذلك الماضي، مع رفض الأخذ بسائر وسائل وأسباب الترقي والتقدم. وأما الشعور الثاني، فقد تمثل في الرضى والقناعة بالدونية، والانبهار والانهزام والتبرؤ من الماضي التليد، مع الاعتقاد الجازم بأن السعادة والرخاء والاستقرار والأمان مرهون كل أولئك بالتبعية الخالصة للغرب الغالب.

أمام هذين الشعورين، حاول الإمام -كعادته- أن يحيي شعورًا ثالثا لا ينتمي إلى أي من هذين الشعورين، وينبثق من إيمانه الخالص بأن الابتلاء لا يعني نهاية المطاف، بل يجب أن يعقبه صبر واصطبار وتعلم من الماضي، وإدراك الحاضر، والتخطيط للمستقبل، يقول: ".. إن المصيبة ليست شرا محضا، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء مثلما قد تفضي السعادة إلى بلاء.. لقد فقدنا بهذه الهزيمة سعادة عاجلة زائفة، ولكن تنتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلا زاهرًا فسيحًا بحال حاضر جزئي متغير محدود، لا شك أنه رابح.. فلو كنا منتصرين غالبين لكُنّا ننجذب إلى ما لدى أعدائنا من الاستعمار والتسلط، وربما كنا نغلو في ذلك.. فهذه المدنية.. التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيّئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان، وصحوته بالانقراض؛ فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفيهة المتمردة الغدّارة المتوحشة معنى في أرجاء آسيا.."[٤]

إن نظرة متفحصة في نظريته في المسألة الغربية، تهدينا إلى تقرير القول بأن الوسطية والاعتدال عند النظر إلى الأشياء كان الدافع والأساس الذي تقوم عليه نظرة الإمام.

وقد عني رحمه الله بتحقيق القول في الأسباب التي جعلت أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وحَصَر تلك الأسباب في سببين أساسيين، أوّلهما: سبب عقَدي لا دخل للبشر في إيجاده، وثانيهما: سبب مادي، للبشر دخل في إيجاده. أما السبب العقدي، فإنه يتمثل في التزام أوربا الأولى بالبقية الباقية من النصرانية الحقة التي لم تطلها يد التحريف والتغيير والتضليل والتبديل، ذلك لأن النصرانية الحقة التي أتى بها المسيح عليه السلام، تدعو إلى الرحمة والسماحة والتواضع وصلة الرحم، وهذه النصرانية الحقة تقوم في جذورها على الحنيفية السمحاء، وقد بعث بها أيضا نبينا عليه صلوات ربي وسلامه، ووصفها ذات يوم بأنها اللبنة التي تكمّل بقية البناء. وأما السبب المادي الآخر، فإنه يعود -في نظر الإمام- إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها للبشرية من خلال ما توصّلت إليه من صناعات وعلوم وإنجازات، وترفع عن العالمين المشاق والصعاب، وتوفر لهم وسائل الراحة والرفاهية.

على أنه من الحري بالتقرير أن أوروبا -الأولى أو الثانية- لم تصل إلى هذا المستوى من الترقي والتقدم والتطور إلا من خلال ما تميزت به من إبداعية وعمق في التفكير والتخطيط والنظام، والتزامها الحزم والانضباط والرويَّة والأناة فيما تقدم عليه من عمل أو صناعة.

إن هذه الخصال التي لخّصها الإمام النورسي في بيان رفيع تعد في حقيقتها أسباب تقدم الشعوب ونهضة الأمم. وتلك سنة الله الماضية في الأمم قاطبة، و لم ولن تتخلف في أمة قط مهما سمت أو دنت عقيدتها.

### أسباب كون أوروبا الثانية ضارة للبشرية

ولئن كان هذا تحليلا لأسباب كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن ثمة أسبابا لكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة للبشرية، وقد عني الإمام رحمه الله بتحرير القول في هذه الأسباب في جملة من كتبه. فتجردُ أوروبا الثانية عن مبادئ هذه النصرانية يعد السبب الأساس في كونها ضارة ومضرة بالبشرية؛ وأما السبب الثاني الذي جعل أوربا الثانية غير نافعة، فإن ذلك يعود إلى لجوئها إلى استخدام نتائج الصناعات والإنجازات التي توصلت إليها فيما لا يعود على البشرية بنفع ولا فائدة، بل إنها تقود البشرية إلى مهاوي الدمار والضلال والضياع والتيه، مما جعل هذه الأوروبا أكثر إضرارًا وإساءة إلى البشر.

وانطلاقا إلى أنه ليس من الوارد عيش الإنسان على هذه الأرض دون أن يستند إلى معتقد ولو كان فاسدا ودنيئا، فإنه كان لا بد لأوروبا الثانية من أن تتبنّى بعد تمردها على الديانة النصرانية ومبادئها، ديانة أخرى محرفة من الديانة الصحيحة الحقة تتخذ من الفلسفة المادية أساسا لها، وتقوم على التنكر الصارخ للخالق المدبر العزيز الحكيم، وتنأى بنفسها عن مبادئ النصرانية الصحيحة رغم ادعائها إيّاها، كما أنها تلفظ في كثير من سلوكياتها القيم والأخلاق الحميدة التي أتى بها الدين العيسوي، ولا تعترف بثبات تلك القيم أو الأخلاق في المجتمعات، بل إنها ترى قيما وأخلاقا خاضعة للظروف والأزمنة والأمكنة انطلاقا من مبدإ التفسير المادي للتاريخ، والمعتقد والأخلاق، فكل شيء يحدث في المجتمع وفق هذا المبدإ إنما يحدث للظروف المادية، فالمادة هي المسؤولة عن تشكيل المعتقد والأخلاق، وتتأثر سلوكيات الأفراد والجماعات بالمادة.

بناء على هذا التفسير الجائر للتاريخ والمعتقد والقيم، لم يكن من عجب أن تتحول الحياة في كثير من الأقطار التي تخيم عليها هذه الفلسفة إلى حياة ملؤها الاضطراب والإباحية والسفسفة والقلق. وقد صوّر الإمام النورسي حالة الحياة التي تسيطر عليها هذه الفلسفة وصفا دقيقا، فقال ما نصُّه: "..فيا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة، لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنّمية، ثم أدركتِ أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له؛ إذ يهوي بالإنسان من ذروة أعلى علّيين إلى دركِ أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لكِ أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس، وتخدير الشعور مؤقّتا، وكمالياتك المزخْرفة وأهواؤك المنومة.. فتعْسًا لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك..".(٥)

### تقويم منهجي للنظرة النورية إلى المسألة الغربية

وبالرجوع إلى أهل العلم بمناهج البحث والتحقيق، نجد ثمة اتفاقا بينهم على أن التحليل العلمي الدقيق للأفكار ينبغي أن تتوافر فيها جملة من الأسس الضرورية الهامة، ومن أهمّها: الموضوعية، والعلمية، والشمولية. فهلمّ بنا لنقف هُنَيهة نتبين خلالها من مدى توافر هذه الأسس في النظرة النورية إلى المسألة الغربية.

#### أولا: الموضوعية في الطرح

ليس من مرية في أنه من طبيعة الأفكار والآراء التأثر المباشر وغير المباشر بالقناعات القبلية والتقلبات الزمانية والمكانية والعادية، ولا يَسلَم من هذه الظاهرة من المفكرين والعلماء إلا فئة قليلة يتميزون بالصمود أمام العواصف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولكن نظرة متمعّنة في جل الأعمال التي تركها الإمام النورسي، تدلّك على محاولته الدائمة عدمَ إخضاع أفكاره وآرائه الإصلاحية لظروف الزمان والمكان؛ فعلى الرغم من الظروف النفسية العويصة الصعبة التي كانت الأمة الإسلامية تمر بها إبان الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من سيطرة الشعور بالهزيمة واليأس لدى البعض، واستعلاء الشعور بالانبهار والانخداع لدى البعض الآخر، فإن الإمام النورسي أبى أن تكون نظرته أسيرة لأي من هذين الشعورين.

ولكأني بالإمام وهو يقدم نظرته القائمة على الموضوعية العلمية، يريد أن يقرر بجلاء ضرورة العودة إلى المنهج القرآني عند التعامل مع الأفكار والأشخاص، وهذا المنهج يرفض تبعية تعاليم الشرع للزمان والمكان غير الطبيعيّين، ويراهما تابعين وخاضعين لها، وفي هذا يقول المولى الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨).

#### الثانية: العلمية والشمولية في الطرح

من المتواتر لدى أولى العلم والنهى أن نظرة المفكر المنصف الواعي إلى الأحداث والمسائل ينبغي لها أن تختلف عن نظرة العامة، فالمفكر الحصيف يسمو بنظرته من أن تتأثر وتخضع لأهواء العامة وشهوات الحكّام، ويدفعه ضميره الحي إلى التغلب على لحظات الغضب والانفعال عند البوح برأيه أو نظرته في مسألة من المسائل.

إن غياب العلمية والشمولية في معظم الدراسات والأبحاث التي عني أربابها بتناول المسألة الغربية من زاوية ضيقة هو المسؤول

المسـؤولية التامة عن المواقف غير المتوازنة من المسـألة الغربية، وبالتأمل في النظرة النورية إلى هذه المسـألة، يجد المرء أنها سمت بنفسـها من الوقوع في هذا التغييب المتعمد للعلمية والشمولية والموضوعية، إذ إنها اتسـمت -كما رأينا- بتسليط الضوء على المسألة بصورة متوازنة وصريحة، ولقد اختار الاعتدال والوسطية في النظر إلى هذه المسألة؛ فالغرب في نظرته ليس كله شرا، وليس كلـه خيرا، بل إن العقيدة النصرانية الحقة هي الأخرى ليسـت عقيدة خالية من المبادئ السامية والخصال الحميدة، وليست هي المسـؤولة عن نشأة ما سمّاه بأوروبا الثانية الضارة، وبالتالي، فإن التعامل معه ينبغي أن يقوم على استحضار أمين لهذا البعد.

وخلاصة القول، لقـد أوفت النظرة النوريـة على العلمية والشـمولية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العصر الراهن في تعاملها مع المسألة الغربية، وكان مقتضى هذه العلمية والشمولية ضرورة العودة الصادقة إلى تبنّي الأسباب والخصال الحميدة التي اسـتندت إليها أوروبا في بناء نهضتها وتقدمها وحضارتها، كما كان مقتضاها ضرورة الوعي على أهمية الأديان وخاصة الأديان السـماوية في ترشـيد الإنجازات والصناعات وتسخيرها لخدمة البشـرية والإنسانية؛ فليس ثمة دين سماوي يدعو أتباعه إلى تدمير البنى التحتية للأمم، وسـفك الأرواح، وهتك الأعراض، وإبادة الممتلكات، والاستعلاء في الأرض، والتكبر على العباد، والخضوع للشهوات والنـزوات، فكل أولئك آفات وأمراض تواترت الأديان السماوية على محاربتها والوقوف منها موقف الرفض والإنكار.

### النظرة النورية وواقع العالم الإسلامي الراهن

لئن تأمل المرء في النظرة النورية وما حوته من إشراقات وتحليلات قيمة، ولئن تابع المرء بدقة وإمعـان الظروفَ العالمية التي كانت سـائدة يوم أن باح الإمام رحمه الله بهذه النظرة، فإننا سنجد أن أوروبا التي كان يعنيها في نظرته لم تكن منقسمة على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، وإن قامت بينها الحروب والقلاقل والأزمات، بيد أنه كان يعني بنظرته ما يوجد في حضارة أوروبا ومدنيتها من محاسن ومسـاوئ، وعدّ محاسنها أوروبا قائمة بحد ذاتها، كما اعتبر مساوئها أوروبا الثانية المختلفة عن الأولى.

لكأني بهذه النظرة النورية الشاملة تستشرف المستقبل وتؤكد بأن أوروبا ستنقسم -إن عاجلا أو آجلا- على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة!

وبناء على هذا، فإنه حري بعموم الأمة وخاصة نخبها ومفكريها المخلصين الغيارى أن يستأنسوا وينطلقوا من النظرة النورية العلمية والموضوعية إلى المسألة الغربية مفرقين في أطروحاتهم بين أوروبا النافعة (الغرب النافـع) وأوروبا الثانية (الغرب الضار)، فأوروبا النافعة ينبغي التواصل معها، وفتح حوارات واسعة معها، والبحث عن السبل الممكنة لتعميق العلاقات والاتصالات بينها وبين العالم الإسلامي على مختلف الأصعدة والمجالات سعيا إلى إسعاد الإنسانية والبشـرية برمتها. و لا بد من اسـتثمار ما في الغرب النافع من محاسن وخيرات وتوظيفها لخدمة قضايا الأمة ومساندة مواقفها.

لم يعد ينفع العالم الإسـلامي اليوم -قادة وشعوبا- الإصرار كل الإصرار على تحميل الآخرين -وخاصة الغرب- مسؤولية ما يجتاح الأمة من جوائح وفجائع وفظائع واعتداءات، كما لم يعد يسـعفنا التوغل في المثاليات وانتظار المدد السماوي دون الأخذ بالأسباب والعوامل، فذلك المدد حاشاه أن يدركنا إذا لم نغير من واقعنا الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وصدق الله جل في علاه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، يومئذ سيتحقق لها ما وعدَ الله به.

وصفوة القول، إذا أراد العالم الإسلامي اليوم الإسهام في بناء عالم آمن مسالم متحاب ومتعاون ومترابط، فإنه حري بنا إعادة النظـر في علاقاتنا مع الآخرين، وجعل الإيمان بالتعددية والتنوع قاعدة إيمانية لا نحيد عنها، بل نبني عليها الجسور مع أتباع الديانات الأخرى، وخاصة منها الديانات السـماوية، لمصلحة الإنسانية، ومقتضـى هذا ضرورة إعادة النظـر الحصيف في كثير مما قررته المدونات الفقهية حول علاقة المسلمين بغير المسلمين. فليس من شك في أن هذه التقسيمات صياغات فقهية لا تسمو على المراجعة والتقويم والتعديل في ضوء ما يموج العالم اليوم من ظروف سياسية واجتماعيـة وفكرية واقتصادية لم يكن لها وجود يوم أن صيغت تلك الاجتهادات الفقهية حول رسم علاقات المسلمين بغيرهم. ■

---

(*) مدير المعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية / ماليزيا.

**الهوامش**

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص١٣٧. (بتصرف)

(٢) لقب "سـعيد الجديد" أطلقه الإمام النورسي على نفسه من وصوله منفيا إلى مدينة "بارلا" سنة ١٩٢٧م وحتى خروجه من سجن "أفيون" سنة ١٩٤٩م.

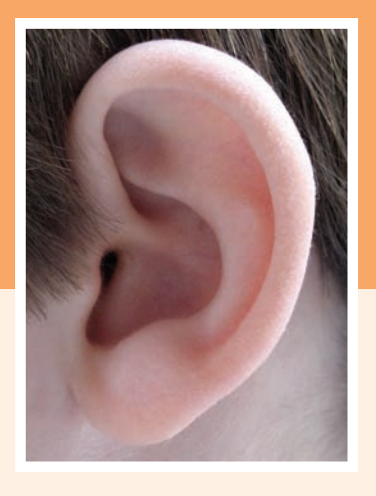
(٣) انظر: اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٧٨-١٧٧ (بتصرف واختصار).

(٤) انظر: صيقل الإسـلام، لبديع الزمان سـعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص٣٥٥.

(٥) انظر: اللمعات لسعيد النورْسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص١٧٨.

**الابتعاد عن العلوم الوضعية بحجة أنها تؤدي إلى الإلحاد تصرف صبياني. أما النظر إليها وكأنها تعادي الدين فهو حكم مسبق وجهل مطبق.**

* * *



# أنا أُذُن عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

**عزيزي عبد الله!**

إن العين التي هي من أهمّ الأعضاء المودعة في رأسك عندما قامت -في العدد السابق- بشرح تركيبها وخلقها المعجز، وكيف أنها هدية كبيرة أُهديت لك، وأنها أضاءت عالَمك.. شعرتُ بالغبطة من جهة، وبنفاد الصبر من جهة أخرى، وقلت في نفسي: "متى سيأتي دوري لكي أشرح نفسي، وكيف أنني ترجمان ربي ﷻ.."

وقد تتساءل: "لماذا نفد صبرك؟".. فأقول: لأنني منذ سنوات أحاول أن أشرح مدى دقّة جميع أجزائي وروعتها التي لا تَرى منها سوى قطعتين من اللحم على جانبَي رأسك، وهما من أروع وسائط جمع الصوت.. أنا في شَوق لأشرح مدى التناسق والتنظيم بين جميع أجزائي لكي أوفّر لك الاستفادة من سماع بعض الأصوات المترددة في الكون، ولأفتح لروحك منافذ جديدة، ولكي أدلّك على صاحب الخلق والقدرة التي ليس لها حدود. وبما أنني مخلوق بنفس الدرجة من دقة العين وروعتها، فلماذا أبقى إذن دون مستوى العين؟!

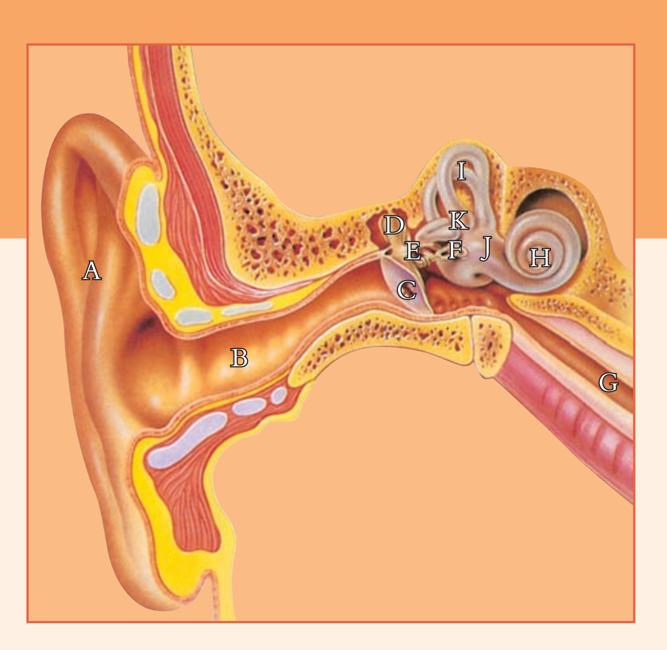
## الدنيا بدوني دنيا صامتة

يود كل فنّان أن يعرض فنّه أمام العيون التي تقدر الفنّ، والخالق سبحانه يريك آيات فنّه الرفيع المتجلية في كل شيء من الذرّات إلى المجرات.. يريك تلك الآيات الباهرات لأنك مخلوق عاقل ومدرك. وقد وضع في جسمك العديدَ من هذه الفنون الرفيعة، وأعطاك من العقل والعلم ما يكفي لإدراك هذه الآيات الباهرات ومعرفتها. فبالعلم تستطيع تقييم حِكَم الوجود وأوصافه العديدة، ولكن لكي تفعل هذا وتحوّل معلوماتك عن الأشياء إلى حكمة وترتقي إلى أفق المعرفة والعرفان، أعطاك خمس حواسّ لتتصل بها بالعالم الخارجي وتتعرف على خواص الأشياء فيه.

إنك إن لم تعرف شيئًا عن الضوء وعن الألوان فستبقى معلوماتك المادّية عن الموجودات ناقصة، كذلك إن لم يثبتني خالقي في رأسك لَم تستطع أن تسمع الموسيقى الإلهية المتجلية في تغريد الطيور، وحفيف أوراق الشجر، وخرير المياه، وهبوب الرياح.. ولبقيتْ معلوماتك في هذه الأمور ناقصة. بينما يسبّح كل شيء بلسانه الخاص لخالقه. وأنت تبصر الموجودات بذبذبات الموْجات الضوئية بعينيك، وتستطيع سماع الأصوات بواسطة اهتزازات الجزيئات المادية بأطوال مختلفة من ناحية التموّجات وما تصدر عنها من أصوات، بواسطتي أنا.

أستطيع تمييز الأصوات ضمن أطوال معيّنة من الموجات تتراوح بين ٢٠-٢٠٠٠٠ هيرتز. وأعجز عن تمييز الأصوات التي تقلّ أو تزيد عن هذه الحدود.

والحقيقة أن هذا العجز يعد رحمة بالنسبة لي، وبالنسبة لك




أيضًا. ولو لم يخلقني ربي -وهو خالق كل شيء في الكون- هكذا، أي لو لم يجعل قابليّتي في السماع محصورة ضمن حدود معينة، لَما ذقتُ لا أنا ولا أنت طعم الراحة؛ لأننا كنا آنذاك نسمع أصوات جميع الأشياء وبصورة مستمرة لا راحة فيها.. من صوت دبيب النمل، إلى صوت أنين حشرة وهي تضع بيضها، إلى أزيز النحل في مساكنها، إلى أصوات أجنحة الطيور الطائرة في السماء...الخ. لذا كانت قدرتي المعيَّرة المحسوبة حسب حاجتك في الدنيا رحمة مهداة إليك. والحقيقة أن خالقي الرحيم يعطي لكل مخلوق ما يناسبه وبقدر معلوم ومحسوب وملائم.. فلا عبث عنده. وإياك أن تحسد الخفاش على قوة سمعه، فالأفضل بالنسبة إليك هو أنا.

إياك أن تنخدع بمظهري الخارجي؛ فأحيانا أحمرّ عندما تخجل، وقد يقرصني والدك أو معلمك قليلا لتنبيهك... فقد ثُـبِّتُّ في أفضل موضع وجعلت في أفضل شكل لالتقاط الأصوات. فما تدعونه بصيوان الأذن (A) (الذي يشبه شكله مغرفة الطعام) متكون من غضاريف مرنة، لذا فهي لا تتكسر عندما تنام عليها. وليست التعرجات الموجودة في هذا القسم، ولا الشعر الموجود عند مدخله دون سبب. فصلابة هذه التعرجات الموجودة وأشكالها (وهي تختلف عند كل شخص حسب شفراته الوراثية) هي أفضل التعرجات والأشكال التي تساعد على جمع الأصوات وتوجيهها إلى الأذن الوسطى حسب شدة الأصوات والاتجاهات الصادرة منها. أما الشعرات الموجودة في المدخل فلكي تحول دون دخول الحشرات والأتربة إلى الداخل. أما الطريق (B) فهو واسع نوعا ما، ومع ذلك فقد ينسد جزئيا من جرّاء التراكم الكبير للإفراز الدهني للأذن، مما يؤدي إلى فقدان وقتي لقابلية السماع عندي.

بعد صيوان الأذن والطريق الخارجي لي (للأذن) نأتي إلى الأذن الداخلية التي تبدأ بطبلة الأذن (C) التي ترتبط بها عظمة المطرقة (Maileus=E) وعظمة السندان (Incus=E)، وعظمة الركاب (Stapes=F). ترتبط هذه العظام الصغيرة ببعضها بزاوية حساسة قدرها ١٠٥ درجة، لذا فهي تستطيع تكبير أصغر اهتزاز صوتي، وتقويه وتنقله إلى الأذن الداخلية. وتتصل قناة "أوزتاكي" الدقيقة (G) الموجودة في فراغ الأذن الوسطى بفراغ البلعوم "Pharynx". وإذا أردت ألا تتفجر طبلة الأذن بالأصوات المرتفعة جدًّا والتفجيرات الكبيرة فأنا أوصيك بفتح فمك، فبهذه الوسيلة تتعادل الأمواج الصوتية الداخلة عن طريق فمك مع الأمواج الصوتية المارة من خلالي فلا تنفجر طبلة الأذن.

ونظرًا لكون أجزاء الأذن الداخلية -التي تأتي بعد الأذن الوسطى- أجزاء حساسة جدًّا فقد حُفظتْ وصينت بعظام جمجمة الرأس. إن منطقة الأذن الداخلية منطقة تتجلى فيها آية فنّ دقيق من الصنعة والخلق. وهي تحتوي على عضوين خارقين لاقطين، لذا فهما محفوظان معا في منطقة صغيرة جدًّا داخل عظْمة الصدغ. ومع كون مهمة كل منهما تختلف عن الآخر فهما موجودان معا؛ أحدهما على شكل قَوقعة (H) تدعى "قوقعة الأذن" (cochlea) مهمتها التقاط الأصوات. والآخر عضو التوازن الذي يحفظ توازنك فلا تترنّح ذات اليمين وذات الشمال وهو عبارة عن "القناة شبه الدائرية" (Semicircular canal=I) والجريب(sacculus=J) والسويط أو قُريبة الأذن (Utriculus=K).

بُنية هذه الأعضاء مصنوعة ككلّ بشكل فني رائع وكأنها قطعة واحدة منْحوتة من المرمر، أو كأنها قطعة واحدة من معدن صب في قالب. وهناك حاجز عظمي يقسم عرضيا هذه القناة شبه الدائرية إلى قسمين. يرتبط الفراغ العلوي منها بالنافذة البيضوية التي تفصل الأذن الوسطى عن الأذن الداخلية. أما القسم السفلي فيرتبط بالنافذة الدائرية. ونحن نسمي القسم الموجود من

السائل الذي يملأ الأذن الداخلية بين النسيج والعظم "Perilenf". أما القسم الموجود داخل الأنسجة فنسـمّيه "Endolenf". يوجد فوق الغشاء الذي يغطي القسم السفلي لقناة قوقعة الأذن (L) عضـوٌ خاصّ جدًّا. ونحن نطلق على هذا القسم اسم عضو كورتي (Corti).

توجد هنا خلايا حساسة للتموجات الصوتية، أي الخلايا اللاقطة للأصوات (M) وخلايا أخرى مساعدة. ونظرا لكون ارتفاعات الخلايـا في عضو كورتي مختلفة من موضـع لآخر، فإن المواضع المختلفة للقوقعة تكون حساسة للأمواج الصوتية المختلفة الأطوال.

إن الموجات الصوتية بعد أن تمر خلال عظام المطرقة والسندان والركاب في منطقة الأذن الوسطى، تصل من النافذة البيضية إلى السـائل الموجود داخل قوقعة الأذن ثم إلى النسـيج الذي يبطن القسم العلوي من القوقعة (اسمه نسيج Reissner=N)، مما يؤدي إلى تموجـات في "Endolenf" وتتقدم هذه التموجات على طول النسـيج حتى تصل إلى عضو كورتي. ورؤوس خلايا هذا العضو الصغير الحساسـة للصوت مبطّنة بشـعيرات دقيقة جدا. وعند وصول موجة الصوت تتمايل هذه الشعيرات.

وهنا تقع حادثة مهمة جدًّا إذ تتحول الطاقة الميكانيكية (الناتجة عن الاهتزازات التي تولدها تلك التموجات) إلى طاقة كهربائية. وتنتقـل هذه التأثيرات أو التنبيهـات الكهربائية إلى الدماغ عن طريـق العصب السـمعي المتصل بالدماغ لتتحـول إلى إدراك للصوت. وتسـتمر الموجات الصوتية نفسها في طريقها وتدخل إلى "Perilenf" مـرة أخرى وتتسـبب في انتفاخ النافذة الدائرية (الموجـودة بين الأذن الوسـطى والأذن الداخلية) نحو الخارج. وهكـذا تقلّ الاهتزازات الصوتيـة في "Perilenf" وتفقد قوتها.

طبعا فإن سرعة حادثة السـمع -التي أشرحها هنا- تكون بسرعة انتقال الموجات الصوتية في عظامي وأنسجتي، أما سرعتها (بعد أن تتحول إلى طاقة كهربائية) بين العصب السمعي والدماغ فهي أكبر، حيـث يُقيَّم في الدماغ ويُعطى الجـوابُ حالًا لهذا الصوت. ولا تحس أنت بهذه الحـوادث التي تقع في أجزاء الثانية، وإنما تقول بأنـك سمعـت صوتًا ما. ولكن هل فكرتَ حتى الآن كيف تَحدث عملية السـمع؟ ولـو لم يخلقني الله عضوًا يقوم بالاستجابة إلى حاجتك للسـمع، لَما كانت لك أيّ معلومات عن الأصوات في الكون، ولا عن الموسيقى.

**تأمّل يا عبد الله، وفكِّر لحظة!..**

لـو لم يكن هناك خالق يعرف جميـع حاجاتك ويجهزك بجميع الأجهـزة التي تحتاج إليها، أكان هنـاك احتمال لظهور تلقائي لفجـوة في عظام رأسـك، وهل كان في الإمـكان تطور هذه الفجوة وتحولها إلى أذن؟... وهل كان هناك أي احتمال لظهور جهاز دقيق رائع مثلي بسبب عوامل مصادفات عشوائية، ونتيجة لتحولات صحيحة الواحدة بعد الأخرى في سياق صحيح دون وجود أية خطة أو تخطيط مسبق؟ لا شك بأنك -وجميع العقلاء مثلك- لا تعتقد بظهوري عن طريق المصادفات، بل نتيجة لخلق من قبل الخالق الكريم والرب الرحيم... أليس كذلك؟!

**مهاراتي الأخرى... حفظي لتوازنك**

لقد شرحتُ حتى الآن وظيفتي المتعلقة بالسمع.. والآن سأحدثك عن وظيفة أخرى لي، لكي تدرك مدى روعة تركيـبي. أرأيت حتى الآن بهلوانًا يمشي على حبل؟ أو شخصًا ماهرًا يتسلق الجبال؟ حسنًا.. يمكنك تذكر شيء أسهل؛ فمثلا تستطيع تذكر حركاتك وأنت راكب على دراجتك محاولًا حفظ توازنك وعدم الوقوع مـن الدراجة. فلو حدث خطأ صغير لسـقط البهلوان من على الحبل، وسـقط المتسلق للجبل إلى هاوية واد، وسقطتَ أنت من دراجتك. ومع أنك تغيّر حركاتك لحفظ توازنك بشكل آلي ودون تفكير، فأنت لا تدري العواصف التي تحدث لديّ بسـبب هذا الأمر! أنت لا تدري طبعًا مدى الحساسية التي تملكها اللاّقطات الـتي جُهِّزتُ بها لكي أؤمّن لك توازنك تجاه جميع الحركات التي

تأتيك من حواليك ضمن أقلّ من ثانية. فهذه اللاقطات الحساسة تحس بأقل حركة لك وتقوم –بواسطة النخاع الشوكي– بإيصال الخبر إلى دماغك لتعيير جسدك حسب الوضع الأخير.

قد تقول: "ولكن كيف يمكن إجراء وظيفتين في الوقت نفسه؛ وظيفة السمع ووظيفة حفظ التوازن في الأذن الداخلية الصغيرة الحجم؟!". هذه هي القدرة اللاّنهائية لخالقي الذي خلق خلايا حساسة لا تُرى بالعين المجردة، بل بالميكروسكوبات.. وحشرها في مكان ضيق، وأعطى هذه الخلايا العاجزة مثل هذه القابليات المدهشة.

يا عبد الله! كيف تتلقى الإحساس بالتوازن، وكيف تعطي ردود الفعل عليه؟ للجواب على هذا السؤال يجب عليك إلقاء نظرة فاحصة على التركيب التشريحي لبنية بعض الأعضاء. هناك انتفاخات صغيرة على شكل مصابيح فوق القسم السفلي للقنوات شبه الدائرية باتجاه الجريبات والسوطيات.. هناك ثلاث شبه دوائر متصلة بعضها ببعض بزاوية قدرها ٩٠ درجة تمثّل الأبعاد الفضائية الثلاثة. هناك لاقطات حساسة من الشعيرات بأعداد قليلة في داخل القنوات شبه الدائرية، وبأعداد كثيفة داخل المصابيح، وهي تتحرك وتتمايل حسب الحركات، ولها قابلية مرونة كبيرة. لاقطات التوازن في الجريبات والسويطات مغطّاة بنسيج رقيق، ويوجد داخلها سائل جيلاتيني وجزيئات من حجر الكلس (Cupula terminalis). أما سائل "Endolenf" الموجود داخل القنوات شبه الدائرية فيتحرك –حسب كثافته– بعكس اتجاه حركة رأسك. وهذا يشبه حركة الركّاب إلى الوراء داخل واسطة نقل تبدأ الحركة بسرعة. وهكذا فحركة ذلك السائل تكون باتجاه معاكس للحركة العامة للجسم؛ فمثلا عندما تميل واسطة النقل أو العربة إلى اليمين تتجه حركة المسافرين نحو اليسار، وإذا وقفت العربة فجأة اندفع المسافرون إلى الأمام. وكل حركة من هذه الحركات تؤدي إلى حركة السائل الموجود في القنوات شبه الدائرية. وذلك تبعًا لمقدار السرعة ومقدار التعجيل. ونتيجة لحركة سائل "Endolenf" تتغير أماكن السائل الجيلاتي وجزيئات الكلس الموجودة فيه، فتنحني الشعيرات الدقيقة الموجودة فوق الخلايا اللاقطة. فأي حركة للرأس تقوم بتنبيه الخلايا الموجودة في أماكن مختلفة وتقوم –بواسطة عصب التوازن (nervus vestibularis) في كل حين بإعطاء معلومات حول جميع التغيرات الحاصلة في التوازن.

**هذه الفعاليات تستوجب التأمل والشكر**

فكِّر يا عبد الله بجميع الحركات التي قمت بها طوال عمرك. عند ذلك ستتأكد وستعرف بأن جهاز التوازن حافظ على توازنك أمام جميع هذه الحركات، كما أمَّن لك جهاز السمع (عضو كورتي) سماع آلاف الأنواع من الأصوات في الدنيا طوال عمرك دون سأم ولا انقطاع ولا ملل. وعلاوة على هذا فلم نَطلب منك أيّ أجر لقاء هذه الخدمات، كما لم يطلب منك ربك عندما خلقَك ووهبَنا لك وجعل مكانَنا في رأسك وربطنا بالمركز الخاص للسمع والتوازن في الدماغ.. لم يطلب منك أي أجر بل طلب التفكر فقط في هذه النعم والشكر عليها.

تستطيع أن تجد في المستشفيات العديد من لوحات العبر لكي تفكر وتشكر، ولاسيما فهناك مرض التهاب الأذن الوسطى (otitus media) يصيب الأطفال عادة، وينشأ من التصاق الجزء السفلي من عظمة الركاب بالنافذة البيضية مما يمنع انتقال الأصوات بشكل جيد فيتولد عنه مرض "otoskleroz" الذي ينتج من التصاق عظام الأذن الداخلية بعضها ببعض مما يؤدي إلى عدم قيام هذه الأعضاء بوظائفها.

عندما تخطو أي خطوة أو عندما تتحرك أي حركة في يقظتك أو في منامك، وعندما تسمع زقزقة أي عصفور أو لحنا حلوا، أو عندما تسمع صوت أمّك أو أبيك ستدرك مدى عظَمة خالقك وعظَمة النعمة التي أهداها لك هذا الخالق الرحيم الذي نقش معاني هذه الأصوات في دماغك.

يا عبد الله! لقد استعملتني حتى الآن لسماع الآخرين فقط. أما الآن فقد قمتُ بتقديم نفسي إليك وتعريفك بي. ولم أستطع سوى تعريف ١٪ فقط من تشريح بنيتي التي هي آية في الفن والدقة. ولو قمتُ بتعريف جميع الدقائق والخصائص بكل حِكَمها الرائعة –بعد التقدم العلمي والطبي الحالي– لما وسعت صفحات المجلة التي تقرؤها بين يديك. كما أنك لا تحتاج في الحقيقة إلى كل تلك المعلومات. المهم هو جلب انتباهك لي لكي تقترب أكثر من خالقك. أرجو أن يتحقق هذا إن شاء الله... واعلم بأنني سأقوم من حين لآخر بتذكيرك بي عندما تسمع رنة في أذنك لكي أصونك من الغفلة. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



# ابن سينا
## الفيلسوف التجريبي والمحلل النفسي الإكلينيكي

أ. د. بركات محمد مراد*

إذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ) قد عُرف واشتهر بكونه فيلسوفا مشائيا، وحكيما أرسطيا، تأثر بالفكر اليوناني عامة والفيلسوف أرسطو خاصة، في جوانب من فلسفته الطبيعية والميتافيزيقية، كما تابع أفلاطون في بعض اهتماماته الفلسفية النظرية وبعض تعريفاته النفسية، فإننا وبمطالعة مؤلفاته نكتشف له جوانب علمية تجريبية يتميز بها عن هذين الفيلسوفين، ويحقق فيها نوعا من الاستقلال الفلسفي عن الفكر اليوناني في روحه وجوهره، خاصة حين يعالج بالدراسة العميقة موضوعات تتصل بالعلوم الطبيعية مثل الطب، فنجده يؤسس لمنهج تجريبي علمي يسري في مختلف تلك العلوم التي يتناولها، وينبث هذا المنهج في تضاعيف تلك المؤلفات التي يضعها.

ومن هنا فليس من قبيل المصادفة أن يظل لموسوعتَي "القانون في الطب" و"الشفاء" الدورُ العلمي الحاسم طيلة القرون الوسطى، وخاصة إذا علمنا أن كتابه "القانون" يترجم إلى اللاتينية عدة مرات ويوضع عليه كثير من الشروح والتحليلات من قبل كبار العلماء، خاصة الطبيعيين منهم، ويُعتمد مصدرا رئيسيا للمعارف الطبيعية، بل وموسوعة موثقة لكل العلوم الطبيعية طيلة قرون كثيرة، وكذلك تتداول مختلف المكتبات والجامعات كتابه "الشفاء" كموسوعة فلسفية وعلمية معا يحاول صاحبها أن يفسر كل ما في الكون بدءًا من أبسط أشكال الفيزيقي (الطبيعي) وانتهاء بأرقى درجات الميتافيزيقي (الماورائي)، إلا أن اهتمامات ابن سينا التجريبية والعلمية قد طغت على أبحاثه في هاتين الموسوعتين بجانب اهتماماته الفلسفية والنظرية.

فقد جمع ابن سينا في موسوعتيه بين عمق تفكير الباحث العقلي، وبين دراية العالم الممارس للتجربة، حيث ضمنهما العديد من الملاحظات والاكتشافات العلمية والتجريبية القيمة التي ظل صداها مترددا طيلة العصور الوسطى، وحتى بداية العصور الحديثة، مما يدفع الباحث إلى محاولة تلمّس منهجي تجريبي يعلن عن نفسه في مختلف مؤلفاته ورسائله، ويكشف عن عمقه بوضوح حين يتناول موضوعات طبيعية، وعلوما مادية مثل علم النبات وعلم الحيوان، والجيولوجيا والفيزياء، وهو ما يطلق عليه الآن "العلوم الفيزيائية والكيميائية"، وكذلك العلوم النفسية حين تعالج بأساليب تجريبية وإكلينيكية (سريرية). هذا فضلا عن علمي الطب والصيدلة، حين يوجه الانتباه العلمي فيهما إلى الملاحظة الإكلينيكية، أو يؤسس فيهما لنظرية علمية تشمل جانبي الطب العلاجي والوقائي أو يخطط لتحقيق تجريبي موسع في الصيدلة العربية.

ويتمثل المنهج العلمي التجريبي عند ابن سينا خير ما يتمثل في علم الطب، سواء كان علاجيا أو وقائيا أو صيدلة، بل وحتى طبا نفسيا. ويتمثل هذا التطبيق خير تمثيل في كتابه "القانون في

الطـــب" الذي ظل المرجع الأساســـي للطب في معظم جامعات أوربا حتى أوائل القرن الســـابع عشـــر، وهو القرن الذي اتسم بالاهتمام بعلم المناهج، على اعتبار أن الخطوة الحاسمة في تكوين المنهج العلمي تمت على يد "فرنسيس بيكون".

وابن سينا يقســـم كتابه "القانون" إلى أبواب تشبه الكتب الطبية الحديثة؛ فهو يبدأ بالتشـــريح ويثني بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، ويعقب ذلك بما نسميه بالباثولوجيا (علم طبائع الأمراض) وأخيرا بعلم العلاج. وإن كان يأخذ عليه "ديلاســـي أوليري" المستشـــرق الإنجليزي كثرة التقسيمات والتفريعات التي هو مولع بها.[١]

ومن يتصفح كتاب القانون يجد الشيخ الرئيس –وهو الطبيب البارع– قد اهتم بكل فروع الطب تقريبا بدءًا من الطب الوقائي وعلم التشـــريح، وانتهاء بالصيدلة وتركيـــب الأدوية والعقاقير (الفارماكولوجي). وقد ســـار ابن ســـينا في تشـــخيص المرض ومعالجته على الطريقة المتبعة الآن وهي الاستدلال بالبول والبراز والنبض، فأمكنه التوصل بذلك إلى وصفِ وتشـــخيصِ كثير من الأمراض، فكان أولَ من وصف الالتهابَ الســـحائي، وأول من فرق بين الشـــلل الناتج عن سبب داخلي في الدماغ والناتج عن ســـبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم (الجلطة)، فخالف بذلك الوصف اليوناني السائد آنذاك.

وأولى ابن ســـينا اهتماما بالغًـــا لمعرفة تنقّل المرض من واحد إلى آخر أو ما نسميه الآن بالعدوى كما يقول "وليم أوسلر" في كتابـــه "تاريخ الطب". فضلا عن معرفته لكثير من الأمراض التي كانت منتشرة في زمنه مثل شـــلل الوجه، وداء الجنب، ومرض الأنكلستوما، ومرض السل الرئوي، وكثير من الأمراض الجلدية والتناسلية التي لم يعرفها القدماء بدقة بالغة كما شخّصها ابن سينا.[٢]

وكان أولَ من وصف داء الفيلاريا وســـريانه في الجسم وإلى وصف الجمرة الخبيثة التي سماها النار المقدســـة، وسبق "عليّ بن ربان الطبري" (٨٥٠ م) إلى الكشف عن الحشرة التي تسبب داء الجرب، وسبق "ابن ماسويه" إلى وصف الجذام.[٣]

**ابن سينا والطب النفسي**

ولن نتابع ابن ســـينا في طبه التجريـــبي ولا في أبواب الصيدلة العلمية التي شـــرحها في كتابه، فهذا يحتاج إلى بحث كبير آخر، ولكننا نتوقف هنا عند نوع واحد من أنواع الطب التي عرض لها ابن سينا في مؤلفه الضخم هو الطب النفسي الذي برع فيه أيضا وسبق كثيرا من المحللين النفسيين المحدثين.

على الرغم من متابعة ابن ســـينا لأرسطو في بعض جوانب معالجاته للنفس من حيث تعريفُها "بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي" أو تقسيمه لقوى النفس أو وظائفها كنفس نباتية أو حيوانية، وناطقة، وتقســـيمه لوظائف العقل إلى عقل عملي وآخر نظري، وكذلك تقسيمه للقوى النفسانية المدركة وغيرها من الموضوعات التي تخص النفس الإنســـانية، إلا أننا نجد له تميزا عن فكر أرسطو الفلسفي والنفسي في كل الموضوعات السابقة بشكل أو بآخر، ويزداد هذا التميز في بعض الموضوعات خاصة تلك التي نحى فيها منحى علميا تجريبيا في معالجاته للنفس وتناوله لقواها ووظائفها وخصائصها، وفي توظيفه لبعض الحقائق والمناهج العلمية في العلاج النفســـي؛ فقد استطاع بحدّة ذكائه، ودقة ملاحظته أن يصل إلى معرفة طبيعة عملية "الارتباط الشرطي= Conditioning" قبل أن يكتشفها "بافلوف" الفســـيولوجي الروسي في العصر الحديث، نتيجة للبحوث التجريبية التي قام بها، وهو تفســـير لم يصل إليه علماء النفس المحدثين إلا في أوائل القرن العشرين.

كما اســـتطاع ابن ســـينا قياس الانفعال على أساس قياس التغيرات الفسيولوجية التي تحدث مصاحبة للانفعال، قبل علماء الفسيولوجيا المحدثون، وهذا ما سنتبينه في علاجه لأحد مرضاه من "حالة عشـــق" شديد، وهو نفس الأساس العلمي الذي يستخدم في جهاز كشف الكذب، وهي نفس الطريقة العلمية التي يتبعها المعالجون النفسانيون المعاصرون.

كما وصل ابن سينا في دراسته للأحلام إلى كثير من الحقائق التي ســـبق بها العلماء المحدثين، وبخاصة دور الأحلام في إشـــباع الدوافع والرغبات التي ســـيقول بها "سيجموند فرويد" في نهاية القرن التاسع عشـــر. ولذلك ليس غريبا أن يُعتبر ابن سينا طبيبا نفسانيا من الطراز الأول، لا يقل في براعته واشتهاره عن براعته في فروع الطب الأخرى، من العلاجي أو الوقائي أو الصيدلي.[٤]

لقد اتخذ ابن سينا التحليل النفسي أسلوبا جديدا من أساليب العلاج الطبي، وقد مارســـه ممارسة ناجحة أكسبته شهرة واسعة في عصره، وتدل أساليبه في ذلك على أنه كان على درجة كبيرة من الخبرة بعلم النفس، وهو قد ربط في فلسفته وخاصة في كتابه القانون بين الطب وعلم النفس، فاســـتغل علم النفس وهو جزء من الفلسفة آنذاك في التطبيب.

والتحليل النفسي لم يكن غريبا على ابن سينا، فقد كان على علم به، إذ اتخذه طريقة من طرق العلاج حتى اشتهر في عصره بقدرته العظيمة على معالجة المرضى بطريقة التحليل النفسي.

فقد أصيب في يوم ما رجل بمرض "المناخوليا"،[٥] وقد استبد به المرض إلى درجة جعلته يعتقد أنه أصبح بقرة، ولذلك امتنع عن الطعام والشراب مع بني الإنسان، ونتيجة لذلك أخذ الرجل يقلد الأبقار فيخور مثلهم ويذهب إلى الإقامة في حظائرها ويتناول الأكل معها ويصرخ مطالبا بذبحه وإطعام لحمه للناس، استمر الرجل على هذا النحو زمنا حتى ضعفت قواه وهزل جسمه وشحب لونه، فعرضه ذووه على الأطباء، ولكنهم عجزوا عن علاجه. وكان ابن سينا آنئذ قد طار صيته في الآفاق، وعرف بتطبيب مرضى العقول، فلما عرض عليه هذا الرجل وفحص عن حاله قال له: ما بالك أيها الرجل؟ وما الذي حلّ بك؟

فقال المريض ليس بي شيء إلا أنني أصبحت بقرة تخور، آكل ما تأكل وأفعل ما تفعل. فأمر ابن سينا بتقييد المريض بحبل متين وألقاه على الأرض وأحضر سكينا حادا، ثم تقدم إلى المريض وأراد أن يهوي بالسكين على رقبته، ولكنه عندما قرّب السكين من نحره، قال: "ما بال هذه البقرة هزيلة ضعيفة، إنها لا تصلح للذبح". فقال المريض: "إنها تصلح للذبح فاذبح"، فقال ابن سينا: "كلا لا نذبحها حتى تمتلئ شحما ولحما". قال المريض: "وماذا أفعل حتى أصير كذلك؟" فقال ابن سينا: "تأكل وتشرب كما يأكل الناس ويشربون". فقال المريض "أوَ تذبحني بعد ذلك؟" قال ابن سينا: "نعم". ثم أخذ الرجل على نفسه عهدا وميثاقا ليفعلن ذلك، وأخذ يأكل ويشرب كما يفعل الناس وكان ابن سينا يدس له فيه الدواء، وبذلك ارتد إليه عقله وزايله المرض وشُفي تماما. ثم زار ابن سينا بعد ذلك فلما رآه سليم الجسم والعقل قال له مداعبا: ما بال البقرة قد سمنت؟ قال: نعم، وقد أصبحت عاقلة.

ولذلك يقول "قدري حافظ طوقان" في كتابه "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك": "درس ابن سينا الاضطرابات العصبية وعرف بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان ابن سينا يرى أن للعوامل النفسية والعقلية -كالحزن والخوف والقلق والفرح وغيرها- تأثيرا كبيرا على أعضاء الجسم ووظائفه، ولهذا لجأ إلى الأساليب النفسية في معالجته لمرضاه".

فإذا أردنا أن نتبين تلك الظواهر النفسية التي عالجها ابن سينا وتوصل فيها إلى حقائق وقوانين تشبه تلك التي وصل إليها علماء النفس المحدثون، فسنجد أنه قد عرف التكيّف الحسي وظاهرة الحجب، فهو يذهب إلى أن المحسوس الخارجي أي (المؤثر الحسي) الشديد أو المتكرر يحدث في أعضاء الحواس الخارجية أثرا يستمر بعض الوقت يصعب معه أن تحس بشيء آخر. ويصف ابن سينا ظاهرة سيكولوجية تناولتها الدراسات الفسيولوجية والسيكولوجية الحديثة، وهي "ظاهرة الحجب = Masking" ويلاحظ أن أرسطو قد أشار أيضا -دون توسع- إلى هذه الظاهرة.

## تفسير الأحلام سيكولوجيا

وأشار ابن سينا إلى بعض الأسباب الهامة في حدوث الأحلام، والتي تناولها علماء النفس المحدثون فيما بعد بالدراسة، ووصلوا فيها إلى نتائج هامة تؤيد ما سبق أن قال بها من قبل ابن سينا، فقد ذكر أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم، سواء كانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أو من داخل البدن.[٦]

وقد دلت البحوث التجريبية الحديثة على صحة ما ذهب إليه ابن سينا من أن للمؤثرات الحسية التي تقع على النائم تأثيرا في حدوث الأحلام، وأكد كل من "موري" و"هرفي دي سان دنيس" و"ويجاندد" على أن للإحساسات الخارجية تأثيرا في الأحلام، فمثلا قد يحلم النائم الذي يشعل بجانبه ضوء أنه يشاهد احتراق شيء ما.

وقد أشار ابن سينا أيضا إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات؛ فإذا كان مزاج البدن في حالة ما من شأنها أن تحدث نزوعا إلى شيءٍ ما، قامت المخيلة بمحاكاة الأفعال التي من شأنها أن تشبع هذا الدافع. يقول ابن سينا: "مثَل ما يكون عندما تتحرك القوى الدافعة للمني إلى الدفع إلى المتخيلة تحاكي صورا من شأن النفس أن تميل إلى مجامعتها، ومن كان به جوع حكيت له مأكولات..".[٧] وبذلك يكون ابن سينا قد سبق "فرويد" في تفسير بعض الأحلام بأنها إشباع للدوافع والرغبات.

وقد أشار ابن سينا في دراسته للأحلام إلى ظاهرة طبية هامة، وهي أن بعض الأحلام ينشأ عن بعض التغيرات في مزاج البدن، أو عن بعض الإحساسات البدنية الداخلية التي يمكن أن يستدل منها على حالات مرضية أو على بداية ظهور حالات مرضية خاصةٍ ستظهر في المستقبل.[٨] وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة

هذا الموضوع، وبيّنوا وجود أدلة كثيرة على علاقة الأحلام بالأمراض ودلالتها عليها.[٩]

### التذكر والكفّ الرجعي

يفرق ابن سينا حين يتحدث عن "الحافظة الذاكرة" بين مفهومَي الذكر والتذكر؛ فالذكر هو الاستعادة التلقائية لكل من الصور والمعاني، وهو يحدث في كل من الحيوان والإنسان. أما التذكر فهو الاستعادة الإرادية للصور والمعاني، وهو خاص بالإنسان وحده. وقد أشار ابن سينا إلى وجود فروق كبيرة بين الناس في قوة الذاكرة والتذكر، كما ناقش أسباب النسيان واستطاع بدقة ملاحظته أن يصل إلى تفسير علمي لم يصل إليه علماء النفس المحدثون إلا في القرن العشرين، فقد كانوا يفسرون النسيان بأنه راجع إلى زوال الآثار التي يتركها التعلم السابق نتيجة عدم الاستعمال. واستمر هذا التفسير شائعا مدة طويلة حتى قام "جينكنز (Jenkins)" و"دلنباخ (Dallenbach)" في عام ١٩٢٤م بدراسة تجريبية[١٠] بيّنت أن النسيان لا يحدث بسبب مجرد مضيّ الزمن بدون استعمال المعلومات، وإنما يحدث بسبب كثرة نشاط الإنسان وانشغاله بأمور كثيرة تؤدي إلى تداخل معلوماته الجديدة وتعارضها مع معلومات سابقة. وسميت هذه الظاهرة بالتداخل الرجعي (Retroactire Interference) والكفّ الرجعي (Retroactire Inhibition). وبينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة أن النسيان قد يحدث أيضا نتيجة تداخل المعلومات السابقة مع المعلومات الحديثة، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل اللاحق (Proctive Interence)، وقد سبق ابنُ سينا علماءَ النفس المحدثين في تفسير النسيان بسبب تداخل المعلومات، يقول ابن سينا في هذا الصدد: "وأكثر من يكون حافظا هو الذي لا تكثر حركاته، ولا تتفنن هممه، ومن كان كثير الحركات لم يتذكر جيدا... ولذلك كان الصبيان مع رطوبتهم يحفظون جيدا، لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشتغل به نفوس البالغين، فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيره".[١١]

### الانفعالات والتغيرات الفسيولوجية

يذهب ابن سينا إلى وجود علاقة وثيقة بين النفس والبدن؛ فالتغيرات في الحالات النفسانية التي تحدث في حالات الانفعال مثلا، يصاحبها أو يتبعها تغيرات في الحالة البدَنية، يقول ابن سينا: "جميع العوارض النفسانية يتبعها أو يصاحبها الروح، إما إلى خارج وإما إلى داخل.. والحركة إلى خارج إما دفعة كما عند الغضب، وإما أوّلاً فأولا كما عند اللذّة وعند الفرح المعتدل، والحركة إلى داخل إما دفعة كما عند الفزَع، وإما أوّلاً فأولا كما عند الحزن.."[١٢]

ويعني ابن سينا بحركات الروح وحركات الدم، ويشير هنا إلى ما أثبتته البحوث الحديثة من أن الانفعال تصاحبه تغيرات فسيولوجية كثيرة، من أهمها ما حدث من تغيرات في الدورة الدموية إذ تزداد سرعةُ وشدة خفقان القلب، وينتج عن ذلك زيادة كمية الدم التي يرسلها القلب إلى أجزاء البدن، وتنقبض الأوعية الدموية الموجودة في الأحشاء، وتتسع الأوعية الدموية الموجودة في الجلد والأطراف، ولذلك يشعر الإنسان عند الغضب بالحرارة تتدفق في وجهه وبدنه ويحمرّ وجهه.

ويلاحَظ كذلك أن الإنسان في حالة الفزع الشديد يصفرّ وجهُه بسبب حركة دمه إلى الداخل، وهذا ما عبّر عنه ابن سينا بقوله: "والحركة إلى داخل إما دفعةً كما عند الفزع.." وإن عبارة ابن سينا "إن جميع العوارض النفسانية يتبعها أو يصحبها حركات الروح" أشار فيها إلى مشكلة شغلت علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس المحدثين، وهي: هل الشعور بالانفعال والتغيرات الفسيولوجية المصاحبة له، يَحدثان معا في نفس الوقت، أم إن أحدهما يسبق الآخر؟ فقد ذهب كل من "كانون" (Canno) و"بارد" (Bard) في العصر الحديث إلى أن الشعور بالانفعال يحدث في نفس الوقت الذي يحدث فيه التغيرات الفسيولوجية والعضلية.[١٣]

وقد أبدى ابن سينا رأيه في هذه المشكلة قبل أن تثار في العصر الحديث، وقال في الإجابة عليها باحتمالين: أحدهما هو أن الانفعال يحدث مصاحبا للتغيرات الفسيولوجية، وهو ما قال به كل من كانون وبارد؛ والثاني أن الانفعال يحدث أولا، ثم يتبعه التغيرات الفسيولوجية، فلا يقول به أحد من علماء الفسيولوجيا والنفس المحدثين.

وقد استفاد ابن سينا بما يحدث من تغير في سرعة وشدة النبض أثناء الانفعال في علاج شخص مصاب بحالة عشق شديد. وقد أراد ابن سينا أولا أن يعرف الفتاة التي يعشقها هذا الشخص حتى يمكن بعد ذلك أن يتخذ خطوات عملية في علاجه من عشقه. وقد ابتكر طريقة لتحقيق غرضه. فكان يضع إصبعه على نبض هذا الشخص، ويأمر أحد الرجال أن يذكر أسماء البيوت وساكنيها بجوار بيت الشاب. وكان يلاحظ ما يحدث من تغيرات في سرعة وشدة النبض عندما سمع هذه الأسماء، واستطاع بهذه

الطريقة أن يصل إلى معرفة الفتاة التي يعشقها هذا الشخص.[١٤]

وقد صنف ابن سينا "حالة العشق" السابقة مع أمراض عقلية والسبات والأرق والنسـيان، وذكر أن من أعراض العشق عدم انتظام النبض وأكد على أنه "أصبح من الممكن التوصل إلى معرفة المعشـوق إذا أصرّ أحد العاشقَين على عدم الكشف عنه، وهذا الكشف هو إحدى طرق العلاج".

ويؤكد ابن سـينا على جدوى هـذه الطريقة التجريبية التي كررها كثيرا وحققت نجاحا حين يقول: "استعملتُ هذه الطريقة مرارا وتكرارا، واكتشفتُ بذلك اسم المعشوق، عند ذكر أسماء المدن والشـوارع والصفة في الوقت الذي يجس فيه النبض، فإن التغير يدل على العلاقة بين المكان والصفة والمعشـوق. وبذلك يمكن معرفة جملة أوصافه"، ويمضي ابن سينا قائلا: "جرّبْنا ذلك بأنفسنا وتوصلنا لمعرفة معلومات مفيدة".[١٥]

ومن هنا يؤكد الدكتور محمد عثمان نجاتي على أن ابن سينا قد سـبق المحللين النفسانيين وعلماء النفس في العصر الحديث في الاستعانة بالتغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الإنسان لمعرفة ما يصيبه من اضطرابات انفعالية. وقد استخدم بعض المحللين النفسانيين الطريقة التي اسـتخدمها ابن سـينا وهي النطق بكلمات معينة، وملاحظة ما تحدثه هذه الكلمات من اضطراب انفعالي في الفرد، والاستدلال من ذلك على المشكلة النفسانية التي يعاني منها الفرد.

وفضلا عن ذلك فإن ابن سـينا بطريقته –الطريقة التي قاس بها التغـيرات التي تحدث في سـرعة النبض– قد سـبق علماء الفسـيولوجيا، الذين يستعينون الآن بأجهزة دقيقة الصنع لقياس التغيرات الفسـيولوجية المصاحبة للاضطـراب الانفعالي، وهي أجهزة حسّاسـة دقيقة لقياس مقاومة الجلـد للتيارات الكهربية الضعيفـة التي تحدث أثناء الانفعال (اسـتجابة الجلد الجلفانية = Galvanic Skim response) ويطلـق عليهـا "أجهزة كشـف الكذب" بسبب كثرة استخدامها في التحقيقات الجنائية.

وقد قام ابن سـينا أيضا بعلاج بعض حالات الاضطرابات العقلية، وذكر في كتابه القانون بعض حالات المرض العقلي التي عالجها، يمكن تتبعهـا –في كتابه القانون– لمن يريد تعمق أمثال هذه الحالات الإكلينيكية.

والمهم في كل هذه المعالجات عند ابن سـينا والتي سـبق بها العلماء المحدثين، في قوله دائما: "جرّبنا ذلك بأنفسنا"، إذ يحتكم ابن سينا إلى التجربة لتقدير صحة فكرةٍ من خطئها، كما يخبرنا أبو عبيد الجوزجاني عنه، وكما يقرّر ابن سينا –ونتيجة للملاحظات السريرية– حين يقول: "وتعهدتُ المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف".[١٦]

وتعتبر معالجة ابن سينا أو اكتشافه حالة العشق الشديد السابقة نوعـا من تحقيق الفرض العلمي، وذلـك في قوله: "وتكون اليد على نبضه إذا اختلف بذلك اختلافا عظيما وصار شـبه المنقطع ثم عاود. وجربتُ ذلك مرارا، علمت أنه اسـم المعشوق".[١٧] فالتجربـة هنا للتحقق من صحة الفروض التي كان يفترضها ابن سـينا من تغير حالة النبض في حالة المريض بالعشق. أي إنه كان يجري التجربة أكثر من مرة، فـإذا توفّرت نفس الأعراض جزم بالعلة لصحة التشخيص.

ومن هنا يتبين لنا كيف جمع ابن سينا بين نظرة العالم الطبيعي المدقق، ورؤية الفيلسوف الشاملة والعميقة، فكان منهجه العلمي يستند إلى دعائم فلسفية تشترك في تكوينه كلٌّ من النظرة العقلية المنطقية، والرؤية الحسية التجريبية؛ تشكل عند جمعهما وتأليفهما معلمَين رئيسيَين لمنهجه وهما المعلم الاستقرائي التجريـبي بجميع أبعاده، والمعلم الاستنباطي العقلي بكل ارتساماته. ■

---

[*] رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

**الهوامش**


(1) Oleary (Delacy): Arabic Through and its place in histort, London 1972, p. 173.

(٢) د. علي عبد الله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢٤٠، ٢٤٢،

(٣) د.توفيـق الطويل، في تراثنا العربي والإسـلامي، عـالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨م، ص١٠٥.

(٤) أبو الفتوح التوانسـي، من أعلام الطب العربي، الدار القومية للطباعة، مصر ١٩٦٦م، ص ١١٩.

(٥) أبو الفتوح التوانسي، من أعلام الطب العربي، ص١٢٠.

(٦) انظر: الشفاء لابن سينا، ص ١٥٩.

(٧) الشفاء لابن سينا، ص ١٥٩.

(٨) القانون لابن سينا، ١/٦٠، ٣/٢٨٤.

(9) N. Vasschide et M. Pieron la psyebologie du reve on point du vue pairs Medicale, p.9.

(10) Jenkins J.Gamd Dallenbachk. M. Obliviscence during sleep and waking American Journal of psychology 1942.

(١١) الشفاء لابن سينا، ص١٦٥، ١٦٦.

(١٢) القانون لابن سينا، ١/٩٤، ٩٥.

(١٣) د. محمد عثمان، نجاتي علم النفس والحياة، الكويت ١٩٩٢م، ص١١٨.

(١٤) القانون لابن سينا، ٢/٧١، ٧٢.

(١٥) القانون لابن سينا، ٢/٣١٦.

(١٦) القانون لابن سينا، ٢/٣.

(١٧) القانون لابن سينا، ٢/٧٢.

**الحرية هي تحرر الفكر الإنساني من كل قيد يمنعه من الرقيّ المادي والمعنوي، بشرط عدم السقوط في وهدة اللامبالاة أو الانفلات من الشعور بالمسؤولية.**

* * *



# شجاعة السلطان عبد الحميد الثاني

أورخان محمد علي*

السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون في دولة آل عثمان. جاء إلى الحكم في ظروف صعبة جدًّا؛ فالدولة كانت على حافة الانهيار جراء ضعفها الداخلي اقتصاديا وعسكريا وعلميا، ومن جراء الخطر الخارجي الذي كان يتمثل في اجتماع الدول القوية (مثل إنكلترة وروسيا وفرنسا والنمسا) عليها، ومحاولة كل منها ابتلاع قطع من أراضيها الواسعة الممتدة على ثلاث قارات. في مثل هذه الظروف القاسية استطاع هذا السلطان المحافظةَ على الدولة العثمانية ثلاثا وثلاثين سنة (١٨٧٦-١٩٠٩م) بأقل الخسائر، وحال دون انهيارها، وقام بحملة كبيرة في ساحة التعليم وبناء المدارس والكليات. ولكن من جاء بعده من الاتحاديين فتّتوا الدولة العثمانية وبعْثروا أشلاءها في عشر سنوات فقط.

كان عبقريا في السياسة وفي إدارة الدولة حتى قال جمال الدين الأفغاني وهو يصف سياسة السلطان عبد الحميد: "إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصا في تسخير جليسه. ولا عجب، إذ رأيناه يذلل ما يقوم لملكه من الصعاب من دول الغرب ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعا بحجته"، و"رأيته يعلم من دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معدّ لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلّما. وأعظم ما أدهشني ما أعد من خفي الوسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عيانا محسوسا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها".

تعرض هذا السلطان العظيم إلى العديد من الافتراءات الظالمة من قبل أعدائه؛ من أهمها أنه "كان سلطانا ظالما قتل العديد من خصومه"، و"كان كثير الوساوس وعلى خوف دائم على حياته وعلى عرشه، لذا قام ببث العيون والجواسيس في طول البلاد وعرضها". وسنتناول في مقالنا هذا تهمة الجبن. أما أنه بث العيون والجواسيس، فنقول لمن لم يدقق التاريخ العثماني ولا سيما في أدواره الأخيرة إن إسطنبول عاصمةَ الدولة العثمانية كانت تعجّ آنذاك بجواسيس الدول الكبرى، وقد نجحت هذه الدول في تدبير المؤامرات والانقلابات حتى في القصر السلطاني. مثلا استطاعت إنكلترة وفرنسا تدبير انقلاب على السلطان عبد العزيز (عمّ السلطان عبد الحميد). لذا كان من الطبيعي قيام السلطان عبد الحميد بتشكيل مؤسسة استخبارية تقاوم وتناضل ضد الألاعيب والمؤامرات التي كانت هذه الدول الكبرى تدبرها ضد الدولة

العثمانية. هل كان المتوقع من هذا السلطان أن يترك دولته في مهب الريح طعمة للمؤامرات؟!

المدقق لحياة السلطان عبد الحميد يتوصل إلى أن هذا السلطان كان شجاعا رابط الجأش أمام المخاطر التي كانت تطير بألباب الرجال. أي يتوصل إلى عكس تهمة الجبن التي حاول أعداؤه إلصاقها به..

ويكفي أن نورد هنا حادثتين تاريخيتين في هذا الصدد:

**١–حادثة الزلزال الكبير**

لنَنْقل وصفًا لهذا الزلزال الذي سجّل في التاريخ التركي تحت اسم "الزلزال الكبير" (٦ محرم ١٣١٢هـ – ١٨٩٣/٧/١٠م) من المؤرخ التركي حامي دانشماند، يقول: "إن هذا الزلزال الهائل الذي كان متوجهًا من الجنوب إلى الشمال والذي استمر دقيقة واحدة تقريبًا –كما ذكرت جريدة "ترجمان الحقيقة" في نسختها الصادرة في اليوم الثاني للزلزال– قد أدّى إلى تلف وتخريبات كبيرة، فقد تهدم كثير من الجوامع والمنائر والمدارس ومراكز الشرطة وأرصفة الموانئ والمباني الرسمية والخانات[١] والدكاكين والبيوت، كما أصبحت بنايات كثيرة معرضة للسقوط وخطرة على الناس، لذلك فقد هدمت من قِبل الحكومة. وكان معظم الذين ماتوا في هذه الحادثة هم الذين بقوا تحت الأنقاض؛ فمثلًا في منطقة الـ"سراجخانة" قُتل خمسة أطفال من طلاب مدرسة ابتدائية، كما مات بعض المارة عندما سقط عليهم جدار. وكان عدد الجرحى أكثر من عدد القتلى، وقد نُقلوا مباشرة إلى المستشفيات للعلاج. وكلّف السلطان فورًا –بوساطة ياوَرِه– وزارةَ الداخلية ورئاسة البلدية ورئاسة الصحّة بإبداء المعونة والمساعدة الفورية، وبفتح سجل بجمع التبرعات حيث بلغ مجموع ما جمع من التبرّعات في خمسة أشهر وتسعة عشر يومًا (أي حتى ٢٩ من جمادى الآخر المصادف ليوم الجمعة ١٢/٢٨) ٨٢٨٧٤ ليرة ذهبية عثمانية، علمًا بأن القسم الأعظم من هذا المبلغ دفع من قِبل السلطان عبد الحميد".[٢]

ويصف شاهد آخر هذا الزلزال، وهو الشاعر التركي المعروف عبد الحق حامد، فيقول: "كنت آنذاك على باخرة "الشركة الخيرية"، وبعد أن اجتازت الباخرة "بشكتاش"[٣] واقتربتْ من الجسر، رأينا فجأة منظرًا غريبًا كاد يفقدنا عقولنا!.. كانت البيوت تتهدم والسقوف تنهار والمنائر تهوى وتتحطم... لم نكن ندري ما الأمر، وأخيرًا صاح أحدهم: إنه الزلزال. عند ذلك توضّحت لنا المسألة؛ كان الزلزال عنيفًا إلى درجةٍ حسبنا أن القيامة قد قامت".[٤]

في ذلك اليوم كان السلطان عبد الحميد في قصر "يِلْدِز" جالسًا في صالون استقبال المهنّئين بالعيد تحت "ثريا" تزن عدة أطنان، يستقبل المهنئين من السفراء وحوله كبار الضبّاط والوزراء ورجال الدولة... وفجأة وقع الزلزال العنيف وبدأ الناس يتراكضون وعمت الفوضى كل مكان. حتى إن الضبّاط تراكضوا إلى النوافذ القريبة يكسرون الزجاج بأعقاب أحذيتهم العسكرية لكي يُلقوا بأنفسهم إلى الحديقة، وبدأت الثريّا الكبيرة المعلقة في السقف تتأرجح بقوة وعنف كبندول الساعة.

كان السلطان الشخص الوحيد المتمالك لأعصابه، إذ لم يقم و لم يتحرك من مكانه بل بقي هادئًا وقورًا الوقار اللائق بخليفة المسلمين، تتحرك شفتاه بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم.

هذا المشهد الهائل الذي لم يتمالك معه الضباط –الذين خاضوا الحروب وواجهوا الموت فيها– من ضبط أنفسهم فاستسلموا للهرب للنجاة بأنفسهم.. لم يهتزّ السلطان و لم يفقد أعصابه أمام هذا المشهد، بل واجهه بأعصاب ثابتة وبرباطة جأش عجيب.

**٢– حادثة القنبلة**

في ١٩٠٥/٧/٢١م حدثت محاولة لاغتيال السلطان، وذلك بوضع ٨٠ كغم من المتفجرات مع ٢٠ كغم من قطع الحديد في مركبة أُوقفتْ في فناء الجامع الذي كان يصلي فيه السلطان أيام الجمع، ووقّتت القنبلة بحيث تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان من الجامع. وقد تأخر السلطان في الخروج قليلًا، فانفجرت القنبلة –والسلطان بعدُ في المسجد– مُحْدثة دويًّا هائلًا تردد صداه من أقصى إسطنبول إلى أقصاها. قُتل في هذا الانفجار ٢٦ شخصًا وجُرح ٥٨ ونفقت ما يقارب العشرين من الخيول. في هذا الموقف الرهيب الذي ساد فيه الهَرْج والمرْج وتراكض الضبّاط والجنود والناس خوفًا وهلعًا يريدون النجاة بأنفسهم، بقي السلطان هادئًا وساكنًا، ثم مشى –بعد أن أصدر بعض الأوامر– إلى عربته حيث قادَها بنفسه بين هتاف الناس له.

جرَتْ هذه المحاولة بعدما أيقن الأرْمن بأن السلطان عبد الحميد لن يطبّق البند الوارد في معاهدة "برلين" –التي اضطر السلطان على التوقيع عليها– حول الامتيازات والمؤسسات الضرورية التي طلبتها الدول الأوروبية الكبرى من الدولة العثمانية لتأسيس حكم ذاتي مستقل للأرمن مع أنهم كانوا أقلّية في الدولة العثمانية.

كانت خطة الأرمن هي اغتيال السلطان أولاً ثم نسف مقر الحكومة العثمانية، أي نسف الباب العالي وجسْر غَلَطَة والبنك

العثماني وسفارات بعض الدول الأوروبية في إسطنبول لإشاعة فوضى كبيرة فيها لفسح المجال لتدخل الدول الأوروبية.

كان القائم بهذه المحاولة -التي وضعت تفاصيلها في مدينة "صوفيا"- أرمنيًا من منظمة "طشناق" من باكو اسمه "كريستوفر ميكاليان"، حيث قام كريستوفر لتنفيذ العملية بالاتصال مع فوضوي بلجيكي مختص بصنع القنابل الموقوتة اسمه "أدوارد جوريس". وقد صنعت العربة التي وضعت فيها المتفجرات في الخارج، وأدخلت أجزاؤها إلى إسطنبول قطعة قطعة ومن أماكن متفرقة.

وبعد الحادثة تم القبض على أدوارد جوريس وعلى بعض أعوانه، وقد اعترف في المحكمة التي حضرها السفير البلجيكي أيضا بأنه قام بهذه العملية، وحكم عليه بالإعدام. ومع أنه حاول الانتحار في سجنه إلا أنه لم يفلح. أما السلطان "الظالم!" فقد عفا عنه وأمر بإخراجه خارج الحدود، لأنه لم يكن يرغب في توقيع عقوبة الإعدام على أحد.(٥)



يصف "الأميرال هنري وودس" في مذكراته هذه الحادثة فيقول: "لم أكن بعيدًا عن السلطان.. في هذه الأثناء فرْقع دوي كصوت عدة مدافع، واهتــزّت الأرض تحت قدمي وكأنها تريد الإطاحة بي، ذهلت من رباطة جأش السلطان، وفجأة شاهدت العديد من الأشخاص الذين هرْولوا داخل جامع "يلدز" والدماء تنزف من وجوههم وأياديهم، حسبت لأول وهلة أن قنبلة يدوية أُلقيَت على السلطان، ولكنني عندما نظرت إلى فناء الجامع الذي كان السلطان يركّز نظره عليه، ارتعشتُ من الدهشة؛ كان الفناء كأنه ساحة حرب دمرتها المدافع، فهناك تناثرت أجساد الخيول وقطع الأخشاب والعربات التي تمزقت شرّ ممزق وأجساد السائسين المساكين الراقدة دون حياة... وعلى بُعد مترين لاحظت جاويشًا يحاول تغطية جسد ضابط كبير خر صريعًا بإحدى الشظايا.

وما إن سُمع الدوي حتّى أسرعت كوكبة من الفرسان إلى مكان الحادثة وبأيديهم السيوف المشهرة، ولكنها قفلت راجعة عندما تلقّى آمرها إشارة السلطان بالرجوع. وبعد قليل عرف الجميع مدنيّين وعسكريين بأن السلطان سليمٌ معافًى، فلم يتمالكوا أنفسهم -أتراكًا وأجانب، مدنيين وعسكريين- من الفرح وبدأوا بالهتاف "عاش السلطان، عاش السلطان" وانشغل عبد الحميد مدة دقيقة أو دقيقتَين بإعطاء الأوامر لبعض كبار الضباط، ثم توجه إلى عربته بكل هدوء ورباطة جأش. وكعادته فإنه قادها بنفسه، وكانت تقاطيع وجهه في غاية الهدوء. وهكذا ترك الجامع وذهب إلى القصر. وأصيبت إحدى المتفرجات،(٦) كما جرح كثير من المتفرجين بسبب تناثر عظام الخيول الموجودة في مكان الحادث. وسقط فخذ حصان أمام المكان المخصص للسفراء كما تحطم زجاج ساعة برج القصر، وفتحت فتحات كبيرة في أعلى الجامع، وتحطم زجاج نوافذه مما أدى إلى جرح الكثيرين، كما تضرر داخلُ المسجد بشكل كبير".(٧)

يقول رئيس الكتاب "تَحسين باشا" في مذكراته بعد شرح الحادثة: "ماذا شعر السلطان آنذاك؟ لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال، ولكن لا يستطيع أحد الإنكار بأنه أبدى شجاعة خارقة... ولم يُظهر أي نوع من أنواع الانفعال، أو الخوف، واكتفى بسؤال: ماذا هناك؟. وعندما اقترب من عربته ورأى الاضطراب والهلع هتف بهم بصوته الجهوري: "لا تخافوا!.. لا تخافوا!".(٨)

وقد نظم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة،(٩) مهنّئا الخليفة الذي نجا من الموت بعد إلقاء قذيفة عليه، في سبتمبر ١٩٠٥م، قال فيها:

# نــجاة

هنيئًا أميرَ المؤمنين، فإنما     نجاتك للدين الحنيف نجاةُ

هنيئًا لطه، والكتاب، وأمةٍ     بقاؤك إبقاءٌ لها وحياةُ

أخذتَ على الأقدار عهدًا ومَوثقًا     فلستَ الذي ترقى إليه أذاةُ

ومَن يك في بُرد النبي وثوبه     تجُزْه إلى أعدائه الرَّمياتُ

يكاد يسير البيتُ شكرًا لربّه     إليك، ويسعى هاتفًا عرفاتُ

وتستوهبُ الصفحَ المساجدُ خُشّعًا     وتبسُط راحَ التوبةِ الجُمُعاتُ

وتَستغفِرُ الأَرضُ الخَصيبُ وَما جَنَتْ     وَلَكِن سَقاها قاتِلونَ جُناةُ

وَتُثني مِنَ الجَرحى عَلَيكَ جِراحُهُمْ     وَتَأتي مِنَ القَتلى لَكَ الدَعَواتُ

ضَحِكتَ مِنَ الأَهوالِ ثُمَّ بَكَيتَهُمْ     بِدَمعٍ جَرَت في إِثرِهِ الرَحَماتُ

تُثابُ بِغالِيهِ وَتُجزى بِطُهرِهِ     إِلى البَعثِ أَشْلاءٌ لَهُمْ وَرُفاتُ

وَما كُنتَ تُحييهِمْ فَكِلهُمْ لِرَبِّهِمْ     فَما ماتَ قَومٌ في سَبيلِكَ ماتوا

رمَتهم بسَهم الغدر عند صلاتهم     عصابةُ شرٍّ للصلاة عُداةُ

تَبرَّأ عيسى منهمُ وصِحابه     أأتباعُ عيسى ذي الحَنان جُفاةُ؟

يُعادونَ دينًا، لا يعادون دَولةً     لقد كذبَت دَعوى لهم وشَكاةُ

وَلا خَيرَ في الدُنيا وَلا في حُقوقِها     إِذا قيلَ طُلّابُ الحُقوقِ بُغاةُ

بأي فؤاد تَلتقي الهَولَ ثابتًا     وما لقلوب العالَمين ثباتُ؟

إذا زُلزلت من حولك الأرضُ، رادَها     وَقارُك حتى تَسكُن الجنباتُ

وَإِن خَرَجَت نارٌ فَكانَت جَهَنَّمًا     تَغَذّى بِأَجسادِ الوَرى وَتُقاتُ

وَتَرتَجُّ مِنها لُجَّةٌ وَمَدينَةٌ     وَتَصلى نَواحٍ حَرَّها وَجِهاتُ

تَمَشَّيتَ في بُردِ الخَليلِ فَخُضتَها     سَلامًا وَبَردًا حَولَكَ الغَمَراتُ

وَسِرتَ وَملءُ الأَرضِ حَولَكَ أَدرُعٌ     وَدِرعُكَ قَلبٌ خاشِعٌ وَصَلاةُ

ضَحوكًا وَأَصنافُ المَنايا عَوابِسٌ     وَقورًا وَأَنواعُ الحُتوفِ طُغاةُ

يَحوطُكَ إِن خانَ الحُماةَ انتِباهُهُمْ     مَلائِكُ مِن عِندِ الإِلَهِ حُماةُ

تُشيرُ بِوَجهٍ أَحمَدِيٍّ مُنَوَّرٍ     عُيونُ البَرايا فيهِ مُنحَسِراتُ

يُحَيّي الرَعايا وَالقَضاءُ مُهَلِّلٌ     يُحَيّيهِ وَالأَقدارُ مُعتَذِراتُ

نَجاتُكَ نُعمى لِلإِلَهِ سَنِيَّةٌ     لَها فيكَ شُكرٌ واجِبٌ وَزَكاةُ

فَصَيِّرْ أَميرَ المُؤمِنينَ ثَناءَها     مَآثِرَ تُحيي الأَرضَ وَهيَ مَواتُ

إِذا لَم يَفُتنا مِن وُجودِكَ فائِتٌ     فَلَيسَ لِآمالِ النُفوسِ فَواتُ

بَلَوناكَ يَقظانَ الصَوارِمِ وَالقَنا     إِذا ضَيَّعَ الصَيدَ المُلوكَ سُباتُ

سَهِرتَ وَلَذَّ النَومُ وَهوَ مَنِيَّةٌ     رَعايا تَوَلّاها الهَوى وَرُعاةُ

فَلَولاكَ مُلكُ المُسلِمينَ مُضَيَّعٌ     وَلَولاكَ شَملُ المُسلِمينَ شَتاتُ

لَقَد ذَهَبَت راياتُهُمْ غَيرَ رايَةٍ     لَها النَصرُ وَسْمٌ وَالفُتوحُ شِياتُ

تَظَلُّ عَلى الأَيّامِ غَرّاءَ حُرَّةً     مُحَجَّلَةً في ظِلِّها الغَزَواتُ

حَنيفِيَّةٌ قَد عَزَّها وَأَعَزَّها     ثَلاثونَ مَلْكًا فاتِحونَ غُزاةُ

حَماها وَأَسماها عَلى الدَّهرِ مِنهُمُ     مُلوكٌ عَلى أَملاكِهِ سَرَواتُ

غَمائِمُ في مَحْلِ السِّنينَ هَواطِلٌ     مَصابيحُ في لَيلِ الشُكوكِ هُداةُ

تَهادَت سَلامًا في ذَراكَ مُطيفَةً     لَها رَغَباتُ الخَلقِ وَالرَّهَباتُ

تَموتُ سِباعُ الجَوِّ غَرثى حِيالَها     وَتَحيا نُفوسُ الخَلقِ وَالمُهَجاتُ

سَنَنتَ اعتِدالَ الدَّهرِ في أَمرِ أَهلِهِ     فَباتَ رَضِيًّا في ذَراكَ وَباتوا

فَأَنتَ غَمامٌ وَالزَمانُ خَميلَةٌ     وَأَنتَ سِنانٌ وَالزَمانُ قَناةُ

وَأَنتَ مِلاكُ السِّلمِ إِنْ مادَ رُكنُهُ     وَأَشفَقَ قُوّامٌ عَلَيهِ ثِقاتُ

أَكانَ لِهَذا الأَمرِ غَيرُكَ صالِحٌ     وَقَد هَوَّنَتهُ عِندَكَ السَّنَواتُ

وَمَن يَسُسِ الدُّنيا ثَلاثينَ حِجَّةً     تُعِنهُ عَلَيها حِكمَةٌ وَأَناةُ

مَلَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ ابنَ هانِئٍ     بِفَضلٍ لَهُ الأَلبابُ مُمتَلِكاتُ

وَمازِلتُ حَسّانَ المَقامِ وَلَم تَزَل     تَليني وَتَسري مِنكَ لي النَّفَحاتُ

زَهِدتُ الَّذي في راحَتَيكَ وَشاقَني     جَوائِزُ عِندَ اللهِ مُبتَغَياتُ

وَمَن كانَ مِثلي أَحمَدَ الوَقتِ لَم تَجُز     عَلَيهِ وَلَو مِن مِثلِكَ الصَّدَقاتُ

وَلي دُرَرُ الأَخلاقِ في المَدحِ وَالهَوى     وَلِلمُتَنَبّي دُرَّةٌ وَحَصاةُ

نَجَت أُمَّةٌ لَمّا نَجَوتَ وَدُورِكَتْ     بِلادٌ وَطالَت لِلسَّريرِ حَياةُ

وَصينَ جَلالُ المُلكِ وَامتَدَّ عِزُّهُ     وَدامَ عَلَيهِ الحُسنُ وَالحَسَناتُ

وَأُمِّنَ في شَرقِ البِلادِ وَغَربِها     يَتامى عَلى أَقواتِهِم وَعُفاةُ

سَلامِيَ عَن هَذا المَقامِ مُقَصِّرٌ     عَلَيكَ سَلامُ اللهِ وَالبَرَكاتُ

---

(*) كاتب وباحث تركي.

**الهوامش**

(١) جمع خان: وهي البنايات التي كانت تستعمل كفنادق آنذاك.

(2) İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, s.331.

(٣) بشكتاش: منطقة في إسطنبول مشرفة على البسفور.

(4) Ulu Hakan Abdülhamid Han, s.311.

(5) Belgelerle Sultan Abdulhamid, s.117-124.

(٦) كانت هناك أمكنة مخصصة للزوار وللأجانب وللسفراء، يشاهدون منها مراسيم صلاة الجمعة أي ما كان يسمى آنذاك بمراسيم الـ"سلامْلك".

(7) Büyük Türkiye Tarihi, 7/191-192.

(8) İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, s.349.

(٩) الشوقيات، لأحمد شوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/٨٠-٨٢.



# كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟



أ.د.طه عبد الرحمن*

لقد فكَّر غيرُنا طويلا في الصلة بين العلم والدين، حتى أضحى هذا التفكير سبيلهم إلى صنع تاريخ لهم جديد، تاريخ أضفوا عليه من جميل الأوصاف ما أضفوا؛ فهل فكّرنا نحن من جانبنا في هذه الصلة كما فكّروا، وطوّلنا في هذا التفكير كما طوّلوا، وخرجنا منه بما خرجوا؟ كان يصح الجواب بـ"نعم" لو أننا أبدعنا في تفكيرنا كما أبدعوا، إذ لا تفكير بحق إلا مع وجود الإبداع؛ والواقع أن تفكيرنا في هذه الصلة الخفية خلا من أسباب الإبداع، إذ اكتفينا بترديد ما قاله غيرنا في وجوه هذه الصلة.

وقد انقسم هؤلاء بشأنها إلى فرق ثلاث:

### ١- أن بين العلم والدين تناقضًا صريحا

فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والدين تناقضًا صريحا،[١] وبالغت في التمسك بهذا التناقض، ولم ترَ مخرجا منه لا بترجيح ولا بتفريق، بل جعلت العلم حربا على الدين وجعلت الدين حربا على العلم، ورأت أنه لا مخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانهزام الدين؛ فانتصر العلم لديها وانهزم الدين.[٢]

ووُجدت منا نحن كذلك طائفة تدَّعي ما ادعاه هؤلاء، لا حجة لها إلا أن سوانا تقدموا ونحن تأخرنا، فلْنحتذ حذوهم حتى نتقدم؛ وما درت هذه الطائفة منا أن أسباب النزاع بين العلم والدين عند غيرنا لا وجود لها ألبتة عندنا مهما تكلفت من أسباب المشابهة بيننا وبينهم، ومهما لفَّقت من تُهم لتاريخنا حتى يكون بسوء تاريخ غيرنا، طامعة في أن يُقبل موقفها كما قُبِل موقف غيرها، وهيهات أن يُقبل! فالفجوة بيننا وبين سوانا في هذا الأمر لا هي حفرة تُردم ولا هي هوة تُعبر.

### ٢- أن بين العلم والدين تمايزا لا تناقضا

وادعت فرقة ثانية من غيرنا أن بين العلم والدين تمايزا،[٣] لا

تناقضا؛ فليس أحدهما يَثبُت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، وإنما يختص بما لا يختص به هذا الثاني؛[٤] فما يشتغل به العلم لا يشتغل به الدين، وما يشتغل به الدين لا يشتغل به العلم؛ فالعلم عند أفراد هذه الفرقة الثانية موضوعه المعرفة والحقيقة، بينما الدين موضوعه الشعور والحدس؛ وضوابط المعرفة والحقيقة لا تنطبق على مجال الشعور والحدس، وقواعد الشعور والحدس لا تنطبق على مجال المعرفة والحقيقة. وعلى هذا، فلا النقد العلمي بمقدوره أن ينال من الدين، ولا السلطة الدينية بمقدورها أن تنال من العلم.

ووُجدت منا نحن أيضا طائفة أخرى ادعت ما ادعاه هؤلاء، حجتها في ذلك أن العلمَ مبني على التدليل العقلي والدينَ مبني على التسليم القلبي، ولا مطمع في التقدم والتحضر مثلما تقدَّم وتحضَّر سوانا إلا باعتماد طريق العقل على شرطهم؛ ولكَمْ كان فخرها كبيرا أن تجد بين أسلافنا من أشبهَ قولُه قول غيرنا، فراحت تشدد على اتباعه، وما ذاك إلا ابن رشد الذي قرَّر وجوب الفصل بين العلم والدين بدعوى أن العلم طريقُه البرهان الذي يناسب العلماء وأن الدينَ طريقُه الإيمان الذي يناسب العوام! وما دَرَت هذه الطائفة الثانية منا أن البرهان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن الإيمان كما أن الإيمان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن البرهان!

### ٣- أن بين العلم والدين تباينا لا تناقضا

وادَّعت فرقة ثالثة من غيرنا أن بين العلم والدين تباينا،[٥] لا تناقضا ولا تمايزا؛ فليس أحدهما يَثبت حيث ينتفي الثاني، فيكونَ بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، ولا أنه يختص بما لا يختص به، فيكون بينهما تمايز كما عند الفرقة الثانية، وإنما الواحد منهما يتناول ما يتناوله الآخر، لكن بغير الوجه الذي يتناوله به، فمُتعلَّقهما واحد ووجه تعلُّقهما مختلف؛[٦] فالاعتقاد في العلم غير الاعتقاد في الدين والمعرفة في هذا غير المعرفة في ذاك والفعل هنا غير الفعل هناك، فيكون العلم والدين بمنزلة شكلَين متباينين من أشكال الحياة، بل بمنزلة عالمين اثنين لا مجال للمقارنة بينهما ولا لمقايسة أحدهما بالآخر؛ ومادام العلم والدين بهذا التباين البالغ، فلا يُعقل أن نصرف الدين بحجة أنه معرفة لا تقوى على النهوض بموجبات العلم، كما لا يُعقل أن نسعى إلى تقويته بأن نخلع عليه حلية العلم.

ووُجدت منا نحن كذلك طائفة ثالثة ادعت ما ادعاه هؤلاء، مسترجعة بهذا الصدد ما قاله بعض أسلافنا من كون الدين يُعبّر عن الأشياء بلغة المجاز والإشارة، في حين أن العلم يُعبّر عن هذه الأشياء بلغة الحقيقة والعبارة؛ لذا لا يجوز أن نحكم على الإشارة بما يجب في حق العبارة، وإلا صارت قولا كاذبا، ولا أن نحكم على العبارة بما يجب في حق الإشارة، وإلا صارت قولا لا يقبل التحقيق ولا التدليل؛ فيتباين الدين والعلم عند أفراد هذه الطائفة منا كما تتباين لغة الشعر ولغة المنطق؛ وما دَرى هؤلاء أن الإشارة ليست درجة واحدة، وإنما درجات كثيرة، وأن العبارةَ -هي الأخرى- ليست درجة واحدة، وإنما درجات مختلفة! وحينئذ لا مفر من أن يتعذر عليهم الفصل في الأقوال التي تنزل الدرجات الوسطى هل وردت على وجه الإشارة أم على وجه العبارة.

فهذه مواقف ثلاثة من الصلة بين العلم والدين وقفها غيرنا، فقلّدناهم فيها على غير بصيرة من أسبابها الحقيقية في مجالها الأصلي؛ أولها التناقض، وهو يفضي إلى صرف الدين؛ والثاني التمايز، وهو يفضي إلى تقديم العلم على الدين؛ والثالث التباين، وهو يفضي إلى جعل العلم في رتبة الدين.

## ما السبيل للخروج من هذا التقليد؟

فإذن هل من سبيل إلى الخروج من هذا التقليد الذي لا يوضح ما استشكل علينا من أمر العلاقة بين العلم والدين ولا يرفع ما استغلق علينا بصددها، بل ينقل إلينا ما يزيد هذا الأمر استشكالا واستغلاقا، حتى صرنا لا نتعرف على هذه العلاقة في صورتها الأولى عندنا كما كنا قبل التعاطي لهذا التقليد؟ ولكي ينفتح لنا باب التجديد في النظر إلى الصلة بين العلم والدين، فلا بد من صرف الاستغلاق الزائد الذي دخل عليها بسبب التقليد.

يأتي هذا الاستغلاق من تَصوُّرين منقولين عن غيرنا كلاهما مردود، أحدهما "اختزال العلم في علوم الطبيعة"؛ والثاني "اختزال الدين في أحوال الإيمان".

## لا يمكن اختزال العلم في علوم الطبيعة

فلا يمكن أن نختزل العلم في علوم الطبيعة لوجود مبدأين يمنعان هذا الاختزال:

أولهما "**مبدأ مراتب العقل**"؛ وبيانه أن السؤال الذي يجيب عنه العلم هو بالذات "ماذا أعقل؟"، فيكون الأصل في العلم هو العقل الصحيح؛[٧] غير أن العقل الصحيح ليس -كما شاع وذاع- رتبة واحدة، وإنما هو -على الحقيقة- رتب متعددة؛

وحيثمـــا وُجدت رتبـــة من هذه الرتب العقليـــة فثمّة علم على قدرها؛ وعلى هـــذا، يكون العلم فوق العلم الطبيعي متى كانت رتبة العقل الذي يتعلق به تعلو على رتبة العقل الذي يتعلق بالعلم الطبيعي، كما يكون العلـــم دون العلم الطبيعي متى كان العقل المتعلق به ينـــزل عن رتبة العقل المتعلق بالعلم الطبيعي؛ وهكذا، فالعلم أوسع من أن يستوعبه العلم الطبيعي وحده.

والمبدأ الثاني هو "**مبدأ اســتكمال العلــم**"؛ وتوضيحه أن الأصل في كل علم من العلوم أن يطلب كمالَه، ولا يُحَصِّل هذا الكمـــال إلا بالالتجاء إلى العلم الـــذي يعلوه؛ ذلك أن كل علم تكون به آفات وله حدود، ولا يمكن أن يُزيل هذه الآفات ويَرفع هذه الحدود إلا علمٌ أرقى منه، فلا بد إذن لكل علم من أن يظل موصـــولا بالعلم الذي فوقه، حتى تزول عنـــه آفاته وترتفع عنه حـــدوده؛ وهكذا فالعلم الطبيعي لا تذهب عنه مناقصه ويكتمل حقا إلا بعلم غير طبيعي يسمو عليه.

## لا يمكن اختزال الدين في أحوال الإيمان

كما أنه لا يمكن أن نختزل الدين في أحوال الإيمان لوجود مبدأين يمنعان هذا الاختزال:

أولهما "**مبدأ تعدد شـــعب الحياة**"؛ وبيانه أن السؤال الذي يجيب عنـــه الدين هو بالذات: "كيف أحيا؟"؛ فيكون الأصل في الدين هو الحياة الطيبة،[٨] غير أن الحياة الطيبة ليست شعبة واحدة، وإنما شـــعب متعددة؛ وقد نُجمل هذه الشعب في ثلاث كبرى، وهي "شـــعبة الإيمان"، وتدخل فيها كل الاعتقادات؛ ثم "شعبة العلم"، وتدخل فيها كل المعارف؛ فـ"شـــعبة العمل"، وتدخل فيها كل الأفعال؛ ولا حياة طيبة إلا بتكامل هذه الشعب الثلاث فيما بينها، فالفرد لا يحيا بشـــعبة واحدة منها، إن إيمانا وحده أو علما وحده أو عملا وحده، ولا بشـــعبتين منها، إن إيمانا وعلما معـــا أو إيمانا وعملا معا أو علما وعملا معا، وإنما يحيا بها جميعا على قدر نصيبه من كل شعبة منها؛ وهكذا، فالدين أوسع من أن تستوعبه حال الإيمان وحدها.

والمبدأ الثاني هو "**مبدأ اســـتكمال الشـــعبة**"؛ وتوضيحه أن الأصل في كل شـــعبة من شعب الحياة الطيبة أن تطلب كمالَها، ولا تُحَصِّـــل هذا الكمال إلا بالتداخل مع الشـــعبتين الأخريين، ذلك أن كل شعبة تكون بها حاجات ولها تعلُّقات، ولا يمكن أن تُلبي هذه الحاجات وتُرضـــي هذه التعلقات إلا هذه أو تلك من الشعبتين الأخريين أو هما معا؛ فلا بد إذن لكل شعبة من أن تظل موصولة بغيرها من شـــعب الحياة؛ وهكذا، فالشعبة الواحدة لا تبلغ غاياتها وتكتمل حقا إلا بباقي الشعب.

## معالم الصلة بين العلم والدين عندنا

بناء على هذا الذي ذكرناه في سياق إبطالنا للاختزالين المنقولين، تتضح معالم الصلة بين العلم والدين التي قد نكون بها مجدِّدين غير مقلدين، ومنتِجين غير مستهلكين؛ وهذه المعالم المبدعة هي:

أ- أن مفهوم "العلم" يصبح -بمقتضى "مبدإ مراتب العقل"- أوســـع من المفهوم المتداول "للعلم"، كمـــا أن كل علم يصبح -بمقتضى "مبدإ استكمال العلم"- محتاجا إلى ما فوقه من العلوم؛ وفي هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

بـــ- أن مفهوم "الدين" يغدو -بمقتضى "مبدإ تعدد شـــعب الحياة"- أوســـع من المفهوم المتداول "للدين"، كما أن كل شعبة تغدو -بمقتضى "مبدإ استكمال الشعبة"- محتاجة إلى ما يناظرها من الشعب؛ وفي هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

تترتب على هذا الاتساع في مفهوم "العلم" ومفهوم "الدين" نتائج أساسية:

**أولاها**: أن العلم لا يقابِـــل الدين مقابلة تناقض، ولا مقابلة تمايز، ولا مقابلة تباين، وإنما مقابلة تداخل،[٩] إذ يكون العلم جزءً واحدا من أجزاء الدين كما يكون الإيمان جزءً ثانيا والعمل جزءً ثالثا من هذه الأجزاء.

**والثانية**: أن العلم -خلافا للقائلـــين بالتناقض- لا يمتنع أن يَرِد في ترتيـــب واحد مع الدين، وأنه -خلافا للقائلين بالتمايز- لا ينـــزل رتبـــة أعلى من الدين، وأخيرا أنـــه -خلافا للقائلين بالتباين- لا ينـــزل نفس الرتبة التي ينـــزلها الدين، وإنما ينـــزل رتبة أدنى منه كما يكون الجزء أدنى من الكل، إذ إن العلم يدخل في الدين دخول الإيمان والعمل فيه.

**والثالثة**: أن العلوم التي تكون جزءً من الدين لا تقتصر على ما اختص باسم "علوم الدين"، وإنما تشمل أيضا ما اختص باسم "علوم الدنيا"، سواء كانت علوم رياضة أو علوم طبيعة أو علوم حياة أو علوم إنســـان؛ فكل علم منضبـــط بالمبدأين المذكورين: "مبدأ مراتب العقل" و"مبدأ اســـتكمال العلـــم" يصح أن يُتعبد ويُتقرَّب به، أي يُتديَّن به؛ وقد ذكرنا أن المبدأ الأول يقضي بأن تتنوع العلوم بتنوع رتب العقل، أعلاها ما تعلق بما فوق الطبيعة؛

وأن المبدأ الثاني يقضي بأن يكون كل علم موصولا بما فوقه، حتى يتمكن من صرف النقص الذي يلحقه.

**والرابعـــة**: أن تطوُّر العلوم –على خلاف ما يَظُن غيرنا– لا يُضيّق من رقعة الدين، بل يزيدها توســعا، ولا ينقص من تأثيره، بل يزيـــده قوة، ذلك أن العلوم، لما كانـــت جزءً داخلا في بنية الدين نفسها، كانت الأطوار التي تتقلب فيها والتي يَفضُل لاحقُها سابقَها، تفتح في الدين آفاقا معرفية غير مسبوقة وترقى بفهمنا له درجات على قـــدر هذه الأطوار، بل إنها تتعدى ذلك إلى كونها تُجدِّد قدرتنا على التديّن وتُنوِّع سُبلَ تحقُّقه لدينا.

والقول الجامع أن صلة العلم بالدين، من منظور الإسلام، هي صلة تداخل يكون فيها العلم جزءا من الدين، فيلزم بحسب هذا المنظور أن نُقدِّم الدين على العلم، لا تقديم الفاضل على المفضول، وإنما تقديم الكل على الجزء كما يلزم بحســـبه أن نُدخل في الدين كل العلوم، لا دخـــول التابع في المتبوع، وإنما دخول العنصر في المجموع، ألا ترى كيف أن مكتشـــفات العلوم وحقائقها –وهي تشـــهد بصدقِ أخبار الدين وصحة أحكامه– نزداد بها افتكارا واعتبارا، حتى إنها تُقوِّي صلتنا بخالقنا كما يقويها دائم صلواتنا! ■

---

(*) جامعة محمد الخامس، كلية الآداب / المغرب.

**الهوامش**

(١) ومقابله الفرنسي: "contradiction".

(٢) لا يخفى أن هـــذه الفرقة تتكون من الأنواريين ومـــن تبعهم من الوضعانيين والعلمويين.

(٣) بمعنى "الفصل"، ومقابله الفرنسي: "Séparation".

(٤) يأتي على رأس هذه الفرقة مؤســـس التأويليات الحديثة الفيلســـوف الألماني "فريريديرك شلايرماخر" والذي تنبني نظرته على فكرة "الدين الخالص"، انظر كتابه المترجم إلى الإنجليزية:

F. SCHLEIERMACHER: On Religion, Speeches to its Cultured Despisers, trans. R. CROUTER, Cambrige University Press, 1998.

(٥) مقابله الفرنسي: "Incompatibilité".

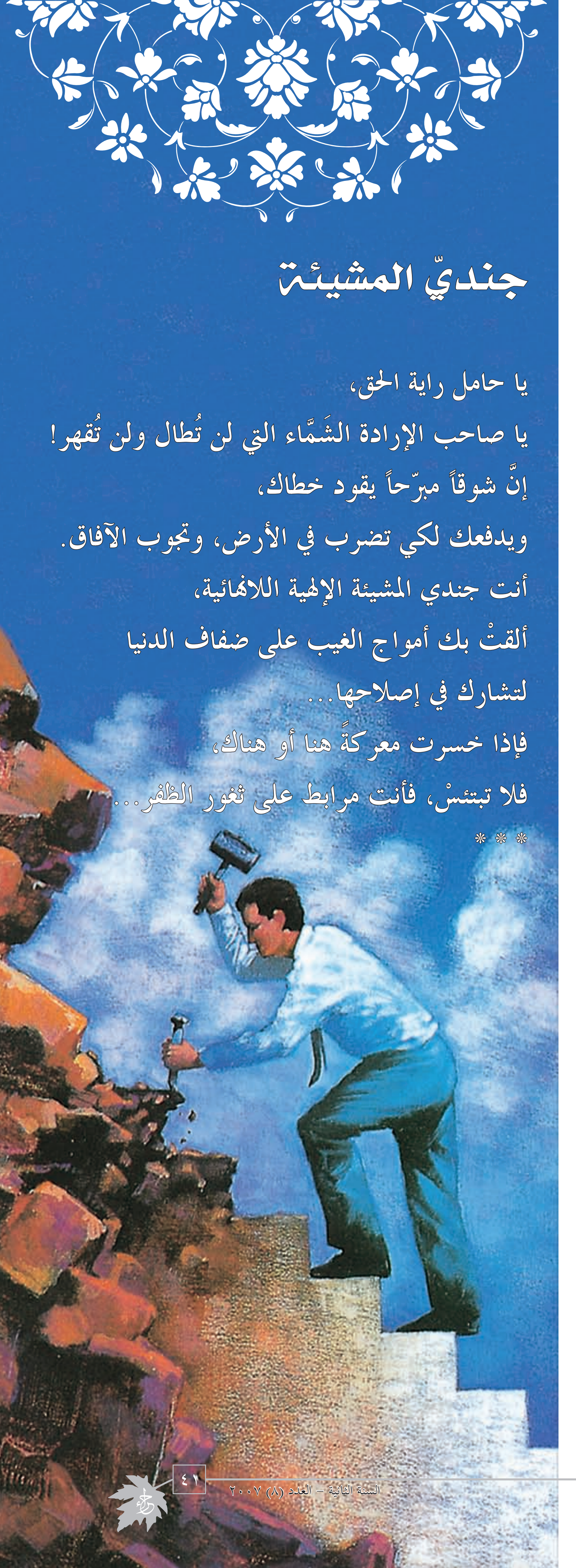
(٦) يأتي على رأس هذه الفرقة الثالثة الفيلسوف النمساوي الشهير "فيتجنشاين"، انظر مقالته "دروس في الاعتقاد الديني" ضمن المجموع:

"WITTGENSTEIN: Leçons et conversations sur l'esthétique, la psychologie et la croyance religieuse, trad. Jacques FAUVE, Gallimard, Paris, pp. 107-135.

(٧) تدبـــر الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣).

(٨) تدبر الآية الكريمـــة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل:٩٧).

(٩) نستعملُ كلمة "تداخل" هنا بالمعنى المنطقي القديم، أي "دخول شيء في آخر من غـــير أن يصح العكس"، ومرادفه في لغة نظريـــة المجموعات هو "تضمن ضيق"، ومقابله المنطقي بالفرنسية هو: "Implication" ومقابله المجموعي هو: "Inclusion stricte".



## جنديّ المشيئة

يا حامل راية الحق،

يا صاحب الإرادة الشَمَّاء التي لن تُطال ولن تُقهر!

إنَّ شوقاً مبرّحاً يقود خطاك،

ويدفعك لكي تضرب في الأرض، وتجوب الآفاق.

أنت جندي المشيئة الإلهية اللانهائية،

ألقتْ بك أمواج الغيب على ضفاف الدنيا

لتشارك في إصلاحها...

فإذا خسرت معركةً هنا أو هناك،

فلا تبتئسْ، فأنت مرابط على ثغور الظفر...

* * *



# الأيام الستة الأولى من خلق الكون

أ.د. عثمان جاقماق*

هناك أسـئلة شغلت أذهان الناس منذ القديم مثل "هل الكون لانهائي؟ أم هو واسع فقط؟ وأين بدايته وأين نهايته؟.." وبالنسبة للذين لا علاقة لهم بالدين فالكون لا بداية له ولا نهاية. وحتى السـنواتِ الأولى من القرن العشرين كان الاعتقاد السائد هو أن الكون ثابت ضمن الزمن، ولكن هذه القناعة تغيرت في بداية القرن العشرين تغيرًا جذريا؛ إذ تبين أن الكون في توسّع مستمر، وأن هناك بداية للكون ونهاية.

ونحن نعلم الآن بأننـا إذا رجعنا إلى الماضي البعيد جدًّا نرَى أن الكون كلّه بنجومه ومجراته كان متركزًا في نقطة واحدة حين ظهر إلى الوجود من العدم. وعندما نأتي إلى هذه المرحلة نرى أن علم الكونيـات (Cosmology) يبحث عن قصة الكون في علم "الفيزيـاء النووية" وأنه يبحث عن قصة الكون في الحركات التي نستطيع مشـاهدتها في هذه الجزيئات التي هي أصغر الموجودات في كرتنا الأرضية. فمن المثير للانتباه أن تكون القوانين التي تحكم الكون مخبوءة في نواة الذرة وفي الجزيئات دون الذرية.[1]

من المسـتحيل طبعًا إعادة وتكرار الشروط والظروف التي أدّت إلى الخلق على سطح أرضنا، ولكننا نستطيع مشاهدة بعض الشروط والظروف التي كانت موجودة في المراحل الأولى من خلق الكون وذلك بتسـريع هذه الجزيئات دون الذرية تسريعًا كبيرًا، ومشاهدةِ طبيعة تصرف هذه الجزيئات في تلك الظروف وفي تلك السرعات؛ أو نسـتطيع -في الأقل- بالمعادلات والحسابات التي نجريها للظروف والشروط التي نستطيع مشاهدتها، القيامَ بتخمين الحوادث التي لا نسـتطيع مشاهدتها. وهكذا فإن المعلومات التي نملكها حول "الانفجار الكبير" (Bing Bang) في الثواني الأولى من الانفجار، ثم في سنواتها الأولى، ثم في مئات السنوات التي أعقبتها إنما تسـتند إلى الحسـابات المبنية على هذه المشـاهدات وعلى نتائجهـا. وقد دلت البحوث بأن الجزء الأكبر من الكون يتألف من الألكترونات والنيوترونات والبروتونات.

نسـتطيع القيام في محطات "المعجّلات الذرية" (التي نستطيع وصفها بأنها ميكروسكوبات ضخمة) بإعطاء سرعات كبيرة جدًّا

للأجزاء دون الذرية. وبهذه السرعات الكبيرة نستطيع مشاهدة بعض المراحل التي كانت موجودة في بداية الكون، وأن نكررها على سطح أرضنا.

قام العلماء العاملون في محطة "المعجلات الذرية" الموجودة في حدود فرنسا مع سويسرة والتي يبلغ طول نفقها ٢٧ كم بتأمين اصطدام "الألكترون" مع "ضد الألكترون"[٢] ودرسوا طبيعة الإشعاع الذي ينتج من هذا التصادم حيث تتحول كل من الألكترون وضده إلى طاقة. ومن دراسة النتائج التي أسفرت عن هذا التصادم، وصلوا إلى معلومات حول بداية خلق الكون، وإلى نتائج مذهلة. تناولوا في أول الأمر مقياس الزمن، ثم تناولوا الثوابت الثلاثة التي تشكل أساس الفيزياء وهي: ثابت بلانك، وثابت السرعة، وثابت جاذبية الكتلة. وباستعمال هذه الثوابت توصلوا إلى حساب أصغر جزيئة غير قابلة للتجزئة لوحدة الزمان والمكان والطاقة.

لقد أظهرت المعادلات الفيزيائية أن الزمن يستمر في الصغر حتى يصل إلى $١٠^{-٤٣}$ ثانية (أي جزء واحد من تريليون X تريليون X تريليون X مائة مليار من الثانية)[٣] وأنه لا يوجد في الكون وحدة زمنية أصغر من هذه الوحدة. وهذا يرينا بأن الزمن لا يمكن أن يصغر بشكل لانهائي، وأن أصغر وحدة زمنية لا يمكن أن تكون أصغر من $١٠^{-٤٣}$ ثانية. وليس من الممكن لنا تخيل مثل هذه الوحدة الزمنية البالغة في الصغر.

كانت الحرارة في لحظة خلق الكون (أي عندما كان عمر الكون ($١٠^{-٤٣}$) ثانية تبلغ $١٠^{٣٢}$ درجة مئوية (أي تريليون X تريليون X مائة مليون درجة مئوية). فإذا علمنا أننا نستطيع حاليا التحدث عن مليار درجة مئوية فقط، علمنا مبلغ الارتفاع الهائل لدرجة الحرارة عند ولادة الكون.

طبعا لم تكن الحرارة فقط هي المرتفعة عندما كان عمر الكون $١٠^{-٤٣}$ ثانية (أي عند ولادة الكون)، بل كانت الكثافة وقوة الجاذبية مرتفعة إلى درجة لا يتخيلها العقل. كانت تلك المرحلة مرحلة بين التجريد والتشكيل، أي مرحلة لا شكل للمادة فيها. وبعد تجاوز هذه المرحلة التي نطلق عليها اسم "مرحلة بلانك"، إن جئنا إلى الكون عندما أصبح عمره $١٠^{-٣٧}$ ثانية نرى أن الحرارة لا تزال مرتفعة جدًا إذ تصبح $١٠^{٢٩}$ م° (أي الرقم واحد وأمامه ٢٩ صفرًا) هنا لا تزال الذرات غير موجودة، ولا تزال القوى الأساسية في الكون (وهي القوة النووية والقوة الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية) غير منفصلة عن بعضها، بل توجد معاً.

عندما أصبح عمر الكون $١٠^{-٩}$ ثانية (أي جزءً من مليار جزء من الثانية) نستطيع متابعة ما جرى فيه من المعجلة الذرية "CERN" الموجودة في سويسره. يقول المختصون أنهم نجحوا في الحصول على درجة حرارة عالية جدًا تبلغ $١٠^{١٥}$م° (يساوي ألف تريليون درجة مئوية).

والآن تتم المحاولات للوصول إلى معرفة خواص الفترة الغامضة الموجودة في المرحلة الأولى من الخلق التي لا نعرف حاليا عنها شيئا، وذلك بالاستعانة بالجزيئات دون الذرية وبالوحدة الصغيرة جدّاً لأجزاء الزمن، وبالتغيرات التي حصلت مع تغير درجات الحرارة. أما في المراحل التي تلتْ فنستطيع القول بأن الكون المادي بدأ يأخذ شكله تدريجيّاً. ويتناول العالم الفيزيائي البروفسور الدكتور ستيفن وينبرغ "Prof. Dr. Steven Winberg" الحائز على جائزة نوبل (والذي يعد من أفضل الكتاب العلميين) في كتابه "الدقائق الثلاث الأولى" التَّطوراتِ التي حدثت منذ حصول الانفجار الكبير وحتى تشكل المجرات، ويقسمها إلى ست مراحل. والآن لنتابع هذه المراحل الست المثيرة للخلق:

**الأيام الستة الأولى: من العدم إلى الوجود**

اللحظة الأولى التي تجلى فيها الأمر الإلهي ﴿كُنْ﴾ تقابل مرحلة $١٠^{-٢}$ من الثانية (أي ١/١٠٠ من الثانية). الحرارة هنا مرتفعة جدّاً وتبلغ ١٠٠ مليار درجة مئوية. الكون في هذه المرحلة الأولى يشبه حساءً من الطاقة الإشعاعية. ومع أن الجزيئات دون الذرية مثل البروتونات والنيوترونات التي تؤلف نواة الذرة لم تتشكل بعد، إلا أن فترة الخلق بدأت تأخذ مسارها. لا توجد هناك سوى الألكترونات وضدها البوزوترونات، والزمن يبلغ جزءً من مائة جزء من الثانية. وعملية الخلق تجري بسرعة كبيرة إلى درجة أن الطاقة والمادة والكثافة بدأت تأخذ أبعادها الفيزيائية (المادية)، أي المادة بدأت تتشكل بدرجة ما، وبدأت تكتسب أبعادها.

والكثافة أيضاً (مثلها في ذلك مثل الحرارة) مرتفعة جدًّا في هذه اللحظات الأولى للخلق. وحسب الحسابات التي استخرجها المختصون من معادلة $E = m.c^2$[٤] فإن كتلة لتر واحد من المادة آنذك كانت تساوي ٣,٨ مليار كغم (٣,٨ مليون طن).

وهكذا نرى كيف أن نواة الكون الصغيرة التي ظهرت في جزء من مائة جزء من الثانية تظهر من ظلام العدم إلى نور الوجود، وكيف أنها بدأت تتوسع بيد القدرة اللانهائية بسرعة




كبيرة حتى بلغت في ذلك الجزء الصغير جداً من الزمن إلى سعة بلغت ٤ سنوات ضوئية.

### ظهور النيوترون والبروتون

في بداية المرحلة الثانية تكون الحرارة قد انخفضت إلى ٣٠ مليار درجة مئوية. وبدأت البروتونات والنيوترونات (التي هي أجزاء من الذرة) بالظهور. هنا نرى أن الألكترونات والبروترونات والنيوترونات وضد النيوترونات والفوتونات في حالة مختلطة. وبدأت نسب الجزيئات دون الذرية التي تشكل نواة الذرة بالتعيّن: ٣٨ ٪ نيوترونات، ٦٨ ٪ بروتونات. وبظهور البروتونات والنيوترونات تكون الكواركات والغليونات[٥] قد خلقت أيضا.

وبعد هذه المرحلة التي تحققت في عُشر جزء من الثانية تأتي المرحلة الثالثة، في هذه المرحلة التي تكون فيها المادة الموجودة في الكون في حالة كثيفة جداًّ، لا تزال الحرارة مرتفعة جدًّا. ومع أنها انخفضت عما كانت عليه في المرحلة الثانية إلا أنها لا تزال في مستوى ١٠ مليار درجة مئوية. أما كثافة المادة فيها فهي أكثر من كثافة الماء بـ ٣٨٠,٠٠٠ ضعفا.[٦]

ولكن الحرارة لم تنخفض بعد في هذه المرحلة إلى الدرجة التي يمكن فيها اتحاد النيوترونات[٧] والبروتونات لتشكيل نوى الذرات.

### عمر مقداره ١٤ ثانية

في المرحلة الرابعة تكون الحرارة قد انخفضت إلى ٣ مليارات درجة مئوية. والكون أصبح بعمر ١٤ ثانية، وهو مستمر بالتوسع بسرعة رهيبة. وعندما كانت الألكترونات والبوزترونات تتقابل مع بعضها، كانتا تفنيان وتتولد طاقة بشكل فوتونات الضوء. وهذه أيضا هي المرحلة التي تبدأ فيها النوى المستقرة لذرات الهيدروجين والهليوم بالتشكل. أي أصبحت الظروف ملائمة لأول مرة لاستقرار بروتون بجانب نيوترون. وهاتان الجزيئتان دون الذرة تولّدان قوة جاذبية تبدأ بمقاومة سرعة التوسع.

وبما أن معظم كتلة الذرة متجمعة في نواتها، فالنواة هي التي تمثل المادة. والنواة تمثل بنية مادية كثيفة جدًّا إلى درجة أننا لو ملأنا ملعقة شاي بمادة نوى الذرات فقط لبلغ وزن الملعقة مليار طن.

وبما أن عناصر النواة مضغوطة في حجم أقل بالنسبة للألكترونات فإن سرعاتها تفوق سرعة الألكترونات كثيرا. فهي تملك سرعة هائلة تزيد على ٦٠،٠٠٠ كم/ث. والسرع الهائلة للبروتونات والنيوترونات تحيلها إلى ما يشبه قطرات سائل تغلي وتفور. فقد ظهر في نتائج العديد من التجارب العلمية حول الذرة وحول النواة أن المادة تظهر كقطيرات صغيرة وكثيفة ومتباعدة بعضها عن البعض الآخر. وتم تشبيه البروتون والنيوترون (أي الجزيئات دون الذرية التي تشكل النواة) كرغوة أو كقطيرات صغيرة كثيفة تفور على الدوام.

والمرحلة التالية لخلق جزيئات البروتونات والنيوترونات التي تشكل نواة الذرة، هي مرحلة تعيير وضبط أعداد هذه الجزيئات. ولو لم يتم مثل هذا التعيير والتنظيم لَتحولت النيوترونات والبروتونات (التي تكون أعدادها متقاربة) وكذلك جميع نوى الذرات في الكون إلى نوى مادة الهليوم، وبالتالي لم تكن الشمس (التي يتألف خزينها من الهليوم) تستطيع أن تسطع وأن تبث ضياءها. أي لم يكن بمقدورها إرسال أشعة الحياة إلى الكوكب الحي (أرضنا) الذي يبعد عنها ١٥٠ مليون كم؛ لأن الهليوم بالنسبة للنجوم -التي يبلغ حجمها حجم الشمس- لا يعد وقوداً بل رماداً متخلفاً. ولكي يمكن إيقاد هذا الرماد هناك حاجة لنجوم أكبر بكثير وإلى انفجارات رهيبة تحدث فيها.

وهكذا تكون الحرارة قد انخفضت بعد عُشر ثانية من خلق الكون إلى ٣٠ مليار درجة مئوية؛ حيث جرَت في أثنائها عمليات التعيير، وبدأت النيوترونات تنقلب بسرعة إلى بروتونات. ونسبة وجود الهليوم والهيدروجين المشاهدة حاليا في الكون تشير إلى صحة الحسابات التي أجريت حول عمليات التعيير هذه.

بعد مرور ١٤ ثانية على خلق الكون انخفضت الحرارة إلى ٣ مليارات درجة مئوية، وانتهت وتمّت مرحلة خلق الألكترونات. وبينما خزنت الشحنات الكهربائية الموجبة في البروتونات، أُعطيت الشحنات الكهربائية السالبة إلى الألكترونات. وهكذا تم تحويل القوة الكهربائية الهائلة في الكون إلى حالة متعادلة. فقد نظم كل شيء ضمن توازن متسق ومنظم بشكل خارق، وهكذا خُلقت الألكترونات بعددٍ مساوٍ لعدد البروتونات.

رسم بياني يبين التاريخ الموجز للكون

المرحلة الأولى — المرحلة الثانية — المرحلة الثالثة

### الحرارة تنخفض

في المرحلة الخامسة من الخلق انخفضت درجة حرارة الكون إلى مليار درجة مئوية. وتبلغ هذه الحرارة ٦٠ ضعف الحرارة الموجودة في مركز شمسنا. والزمن الذي مضى منذ المرحلة الأولى حتى الآن بلغ ٣ دقائق وثانيتين حسب حساب العلماء. في هذه المرحلة نرى سيادة الفوتونات والنيوترونات وضد النيوترونات.

في المرحلة السادسة انخفضت الحرارة إلى ٣٠٠ مليون درجة مئوية. وفي الدقيقة الخامسة والثلاثين من عمر الكون أصبحت المواد الخام لكل شيء في الكون جاهزة. والحرارة انخفضت من المليارات إلى الملايين. وانخفاض الحرارة يشكل أهم سمة لهذه المرحلة، وفيها تستمر الألكترونات في إطلاق الطاقة الفوتونية عبر اصطدامها بالبوزيترونات.

منذ ولادة الكون بالانفجار الكبير وحتى أخْذه شكلا معينا في هذه المرحلة، تسترعي هذه المراحل الست انتباهنا، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٥٤).

فالقرآن يقوم من جهة بتنظيم سلوك الإنسان وأفعاله وبإيضاح الحقائق له، ويقوم من جهة أخرى بلفت انتباهه إلى أسرار الكون، ويطلب منه تأمله وقراءته ككتاب، ومحاولةَ معرفة أسراره وخفاياه، ويلفت أنظارنا وانتباهنا إلى مراحل الخلق الأولى وهي ست مراحل مختلفة. ونستطيع أن نقول إن ذكر مفهوم اليوم –في الوقت الذي لم يكن هناك النظام الشمسي ولا كوكبنا موجودا– هو مفهوم نسبي يأتي بمعنى المرحلة.

أجل، كان الكون في البداية نواة صغيرة، وتحول عبْر مليارات السنوات من شكل إلى شكل؛ في المليار الأول انفصلت المادة عن الطاقة، وتحول الكون إلى حالة شفافة. وبعد مليارين من السنوات تم تركيب نوى الذرات الثقيلة وخلقت أوائل المجرات. استمرت المرحلة الثالثة حتى بلوغ الكون عمر ٣ مليارات سنة. في هذه المرحلة ظهرت المجرات التي تمت مشاهدتها بتلسكوب "هوبل" الفضائي ضمن حسابات "الساحة العميقة Deep Field". وفي المرحلة الرابعة للكون ظهرت المجرات التي تملك موادَّ ذات نوًى ثقيلة، وتشبه المجراتِ الحاليةَ. وفي المرحلة الخامسة للكون تشكلت مجموعتنا الشمسية مع جميع كواكبها الدائرة في أفلاكها، وفيها أيضاً أخذ كوكبنا الأرضي مكانه وموقعه وحجمه ضمن أفضل الشروط الملائمة لظهور الحياة فيه. أما في المرحلة السادسة والأخيرة فقد ظهرت الحياة. وعندما أصبح كل شيء ملائماً ظهر الإنسان.

لقد خُلق الكون وما فيه مرحلةً مرحلة، وكما هو واقع في جميع الأمور الفنية الدقيقة كان هناك سير منظم وتحول من البساطة إلى الكمال. وفي كل مرحلة كانت يد القدرة متجلية وواضحة.

أجل! لم يُخلق الكون دفعة واحدة، بل على مراحل، وكان الإنسان هو الثمرة النهائية لهذه المراحل. والإنسان نفسه مرّ بمراحل ست، فقد تحول في رحم الأم من نطفة إلى علقة ثم إلى مضغة، ثم خلقت عظامه ثم كسيت لحماً ثم تم إنشاؤه خلقاً آخر... فتبارك الله أحسن الخالقين.. ■

---

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي

**الهوامش**

(١) الجزيئات دون الذرية: هي الجزيئات الأصغر من الذرة من أمثال "الألكترونات" و"البروتونات" و"النيوترونات".

(٢) الألكترون: جزيئة دون ذرية تحمل شحنة كهربائية سالبة. وهي تدور حول نواة الذرة.

ضد الألكترون (تدعى أيضا "بوزترون=pozitron"): جزيئة ذرية بنفس كتلة الألكترون ولكنها تحمل شحنه موجبة.

(٣) أو نستطيع التعبير عنه بالكسر الآتي: $١^{-٤٣}$ = $١/١٠^{٤٣}$ وهذا يساوي العدد مقسومًا على رقم واحد وأمامه ٤٣ صفرًا.

(٤) هذه هي المعادلة التي وضعها ألبرت أنشتاين حول العلاقة بين الطاقة والكتلة:

الطاقة = $E$

الكتلة = $m$

سرعة الضوء = $c$

أي إن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء.

(٥) الكواركات والغليونات: هي من الجزيئات دون الذرية المكتشفة حديثا

(٦) أي إن ١ سم$^{٣}$ في المادة آنذاك كانت تزن ٣٨٠ كغم، أي أكثر من ثلث طن

(٧) النيوترينو: من الأجزاء الذرية.



# التكرار والتماثل في الفنون الزخرفية الإسلامية

د. جواد محمد مصباحي*

قد كان السعي وراء إيجاد نسق زخرفي يتلاءم مع السكينة النفسية للمتلقي المتوخاة من خلال إبداعات الفنون الإسلامية، وكذا حرص الفنّان المسلم في مختلف التقنيات عند اشتغاله، على تطويع مواده بما يتلاءم مع الرؤية العامة للإطار البنيوي لما يبدعه، والمتمثل في العمل على بلورة صور الجمال الظاهري للقطعة لتكون نفق العبور بالمتأمل إلى الإحساس بالجمال الباطني بين ثنايا نفسه حتى تتلبسه مشاعر الجلال الجمالي.

فجماليات المكان أو القطعة/التحفة ضمن هذا المكان ما هي إلا نتيجة لاحتدام قوى داخلية في نفس المبدع:

**ظاهرها دنيوي/ وظيفي**: فالمسجد للصلاة، القبة حل هندسي لإيجاد الفضاء الواسع، الأرابيسك عنصر تكسية تزييني...الخ. كل هذه أسباب ظاهرية سهل على المتلقي معرفتها دون إمعان فكر أو تأمّل.

**وباطنها أخروي/ تعبّدي**: فجمالية عمارة المسجد تحيل إلى الإحساس بالسكينة الروحية، والتأمل في القبة يدفعك للتفكير في

الملكوت الأعلى، وما عناصر الأرابيسك إلا إسقاطات لأفعال تعبدية:

فالزخارف النباتية بلطفها وبلينها وانسيابها: رحمة؛ والزخارف الهندسية بيبسها وقوّتها: حق ورهبة؛ والخط بالجمع بين الانسيابية والقوة: حكمة.

وكأني بهذا الفنان المبدع يعرج على درجات العرفان التعبدي بدءً برحمة ربه به أنْ جعله مسلما ينطق الشهادة بحكم فطرته، ثم ينضبط مخافة ورهبة من وجوب حق العبادة عليه، ليصل مرابط الصفاء والحكمة متأسيا بالصفات الإلهية بحكم المعرفة المطلقة بعد إذلال نفسه بالعبادات ودوام الدعاء. كل هذه أسباب باطنية لا ينجلي استقراءها إلا بعمق التفكير والتأمل الداخلي وأنت أمام التحفة.

عود على بدء فتمثيلية الجمال بشقّيه الظاهري والباطني هي الدافع للارتكاز في عملية التصميم الزخرفيّ في الفنون الإسلامية على مبدإ الرؤية الجمالية الشاملة والمتمثلة في الانطلاق من الجزء/البعض للوصول إلى الكل.

ويمكن حصر مبدأ الرؤية الجمالية الشاملة في عدة بنود دائمة التحقيق خلال عملية التصميم تتجلى في:

### ١-احترام النسب والتناسب

عند تحليل كثير من عناصر الزخرفة الإسلامية لن تجد نفسك إلا وأنت محصور بأشكالك داخل عنصر الدائرة، وما الدائرة إلا محيط متناسب بقدر معلوم يبعد عن المركز/"النقطة" أداته الفرجار.

**النقطة:** وفي البدء كانت النقطة هي وحدة التعبير عن المطلق، عن الكلية، فهي المنشأ وهي المنتهى، هي الكل الذي لا أجزاء إلا به ولا انطلاق إلا منه ولا رجوع إلا إليه. وكأن الفنان بذلك يمثل عقيدته المبنية بالأساس على التوحيد المنطوق بقول "لا إله إلا الله"؛ فـ"لا" النافية لما قبلها إجمالا والناصة على ما بعدها مطلقا تحيل إلى سببية الوجود إلاّ لله تبارك وتعالى؛ فلا وجود إلا به ﷻ هو الكل وهو المطلق. فكل مخاض للإبداع الزخرفي في الفنون الإسلامية يبدأ بهذا الجسم الذي حتْما لا يعبر عن العدم ولكن عن الخلق الفني والوجود الزخرفي، وكذلك عن نهايته. ومع التكرار المنتظم لهذا العنصر في اتجاه واحد كان "خط".

**الخط:** فما الخط؟ هو المقدار المعلوم للابتعاد عن نقطة المركز لينتهي كذلك بنقطة، وبحركة انسيابية ليّنة رحمانية على نفس القدر المعلوم ننطلق لنعود للبداية وكانت "دائرة".

**الدائرة:** فما الدائرة؟ إذا كانت النقطة من وجهة النظر التشكيلية/الرسومية يمكن التعبير عنها أداتيا بطبعة قلم أو فرشاة في حركة خفيفية منتظمة هي جسم معتم ذو كثافة في منتهى الصغر حجميا، فالدائرة ما هي إلا تكبير لهذا الجسم مع تلاش في الإعتام والكثافة الداخلية لتكون جسما شفافا محصورا بردة الفعل الحاصلة من الحركة الانسيابية الرحمانية للخط بالمقدار المعلوم على الواقع المحسوس.

وهي بيئة الإبداع للأشكال الأساسية في فنون الزخرفة الإسلامية؛ فمن خلال حركات هندسية مدروسة داخل هذه الدائرة بين مركزها ومحيطها محكومة بقواعد جبرية هندسية، نحصل على المثلث، المربع والخماسي، وهي النماذج الأولية لبنيات التشكيل والتصميم الزخرفي، سواء بشكل انفرادي وما يترتب عنها من علاقات هندسية زخرفية، أو من خلال تكرار الشكل الواحد وتداخله وما يترتب عن ذلك من تركيبات بنيوية. وكذلك يمكن الجمع بين هذه الأشكال الأولية في بيئة واحدة لتصبح زخرفا قائم الذات أو تخطيطا ناظما مركّبا يمكن من استنباط زخارف متنوعة.

فالاحتكام إلى شكل الدائرة في بنية التصاميم الزخرفية سمح للفنان المسلم بخلق أشكاله خاضعة لنسب معلومة وذات تناسق بنيوي، وكأنه يدلل من خلال إبداعاته على قول الرحمن تبارك وتعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩).

### ٢- توزيع العناصر

إذا كان الاشتغال في إنجاز الزخارف على الدائرة كشكل أساسي أدّى إلى احترام النسب والتناسب في الإخراج الفني -مما يدفع بالمتأمل إلى الانغماس في لحظات تذوق جمالي كله انبساط وسكينة وراحة نفسية كردة فعل على التوازن المظهري للتحفة- فإن توزيع العناصر ضمن الكتلة الكلية بشقّيه: التوزيع الكمّي، والتوزيع الكيفي ما يزيد القطعة الفنية إلا رسوخا في البعدَين الجماليين الظاهري بالتوازن المرئي، والباطني بالاستقراء التأملي الانكماشي المعكوس، أي الدخول من الوحدة الفنية الكلية، إلى جوهر الفرد الجزئي بين التفاصيل وتحصيل كنهه.

وينقسم هذا التوزيع إلى شقين:

#### أ- التوزيع الكمي

ويتجلى من خلال تحكم الفنان المبدع في الكتلة والفراغ، على أية مادة من مواد الاشتغال وبتقنيات مختلفة.

فإذا تطرقنا بالقراءة لنماذج الزخرفة النباتية (فن التوريق)،

–وهنا أفتح قوسا لأحدد عناصره المكونة بشكل إجمالي دون الدخول في متاهات اختلاف التسميات حسب البلدان والتقنيات–، لنكوّن فهما قاعديا لقراءتنا هذه.

فنجد أن هذه العناصر هي:

**المسار:** –وهو بمثابة الهيكل البنائي للوحدة الزخرفية– يأخذ في أغلب الأحيان أشكالا لولبية يمكن أن تكون مفردة أو مزدوجة، متعانقة أو متنافرة، تسرح بالمتأمل في تيه سرمدية الوجود اللانهائي. فلا وضوح لمركز البداية ولا استجلاء لنقطة النهاية، وكأن الفنان بمساراته هذه يعبّر عن معاناته وهو يعْبر هذا التيه لينتشي بنشوة الإبداع والخلق.

**الورقات:** –هي أجسام الوحدات المتفرعة من خلال هيكل المسار– تأخذ عدة أشكال حسب مادة وتقنيات الاشتغال، وكأنها انفتاح لهذا المسار في حركات توالدية، أخذت أصولها أولا من الطبيعة كتأويل لرياحين الجنة في العالم الأخروي، ثم هذّبت وتحورت لتصبح رشيقة المظهر تندمج مع المسار في كتلة واحدة فتزيد المتأمل تيها ونشوة وهو يحاول فكّ طلاسم تشابكاتها وترابطها.

فالاحتكام في البناء الزخرفي لهذا الفرع (الزخرفة النباتية) يكون مبدئيا لهياكل المسارّ داخل فضاء اللوحة، يحتم على الفنان توزيعا كمّيا محدودا لوحداته تحكمه خلفية التشكيل حسب المادة والتقنية، وهي الفراغ الموازن لكتلة البناء الزخرفي (مسار زائد ورقات).

وفي الزخارف الهندسية (فن التسطير) نجد أن التوازن الكمّي فيها يتضح جليا من خلال قراءة أسميتها "القراءة الترابطية"؛ فالمتأمل لا يمكن أن يستوعب شكلا معيّنا دون أن يقرأ مجاله المحيط، فمثلا لا يمكننا أن نقول هذه نجمة ثُمانيّة إلا إذا حددنا محيطها وهو ثمانية رؤوس متساوية متقايسة، وكذلك العكس. فالأشكال شفافة إذا كان محيطها معتمًا، ومعتمة إذا كان محيطها شفافا، وكأنك في رحلة دائمة بين الظاهر والباطن، بين القبض والبسط.

أما وحدات الخط العربي فتختلف مقاييس التوزيع الكمي في تصميماتها حسب أنواع الخطوط المتعددة، لكن عند تنفيذ هذه الوحدات بالتقنيات المعمارية يتجلى التوازن الكمي بها كما في الزخارف النباتية من خلال لعبة التبادل بين الأرضية/الخلفية والتشكيل.

**ب– التوزيع الكيفي**

بالإضافة لما ذكر بخصوص التوزيع الكمي في شتى فروع الزخرفة، نجد التوازن الجمالي في التحف الإسلامية من خلال بند توزيع العناصر يرتكز كذلك على مبدإ التوزيع الكيفي من خلال لعبة التوازن اللّوني وتوزيعاته في العناصر، وكذا موازنة متلازمة "النور والظل".

فقد حرص الفنان المسلم –ولا زالت التقاليد الفنية جلية راسخة في هذا الباب– على توزيع الألوان بشكل متوازن مع انعكاسات الظلال. وهذه تركيبة تناغمية توافقية بين الإحساس بثقل الكتلة الزخرفية، سواء كانت ألوانها حارة أو باردة، وكذا الشعور بشفافية الظلال وإعطائها وزنا في التعبير عن الفراغ حسب التقنيات.

ويمكن استجلاء ما ذكر بشكل قوي، والإحساس بتوازن الكتلة والفراغ في الأعمال الزخرفية الإسلامية من خلال إمعان التأمل في أيّة لوحة من لوحات آيات الجمال المعماري في العالم الإسلامي. وهنا يحضرني تعبير بلاغي في هذا الباب لعلَم من أعلام استقراء مفردات الفن الإسلامي: "تيتس بوركهارت" في مقالة له بعنوان "أسس الفن الإسلامي" حيث يقول: "فالمادة الخام –إن جاز التعبير– تم تخفيفها في العمارة الإسلامية وتحولت إلى شفافة بسبب الزخارف النباتية وأشكال المقرنصات التي حفرت فيها والتي تقدم آلافا من الإمكانات للضوء، مضيفة على الحجر والجص صفة الجواهر الثمينة. فالأرْوقة في فناء ما في "قصر الحمراء" على سبيل المثال، أو في مساجد معينة في المغرب العربي، قائمات في صمت تام، وتبدو في الوقت نفسه وكأنها منسوجة من تموّجات من النور، أو أنها نور يتبلْور وكأن صميم جوهرها ليس حجرا بل هو النور الإلهي، العقل الإلهي المبدع الذي يكمن إبداعه الخفي في كل شيء".

## ٣– الربط بين المساحات الزخرفية والأسطح

لقد مكنت شساعة رقعة التشكيل الزخرفي وكثرة استنباط العناصر، وكذا التركيبات البنيوية للزخارف الإسلامية حسب الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، هذه الكثرة التي يمكن إفراد مكوّناتها على عمر الحضارة الإسلامية وهيكلتها حسب معطيات التاريخ، ولا زال نبضها لم ولن يخفت مادام هذا العالم الإسلامي محافظا على نظام الصنعة بنظمه، كمكوّن أساسي في الشخصية الإسلامية... أقول مكنت من إعطاء الفنان المسلم إمكانات كثيرة في تكسية الأسطح والمساحات بما يتلاءم معها من عناصر زخرفية دون نشاز في البلورة الجمالية للقطعة/التحفة، بل الأجمل من ذلك أنه كلما كان هنالك تعقيد معين في السطح المراد زخرفته يكون مدعاة وسببا في خلق فني جديد وابتكار زخرفي حديث يضاف لفهرس مكتبة الزخارف والتصاميم الإسلامية حتى يكون مرجعا

لما بعد، تتناقله أيدي الصناع المهرة دون حكر على أحد.

وكذلك يمكن تطويع تصاميم صنعة ما لتلائم أخرى في تلاقح بين التقنيات يظهر جليا في مكونات الزخرفة المعمارية خاصة، من أعمال الرخام والخشب، والجص والزليج..الخ. وما يتمازج بين تقنياتها من مكونات زخرفية.

**٤–الوحدة في الكل والكل في الوحدة**

بالارتباط مع بند التناسب المذكور أعلاه تأتي العلاقة الرياضية بين الجزء والجزء، وكذلك الجزء والكل في كيانات الزخارف الإسلامية كمبدأ أساسي للتقييم والإحساس الجمالي لدى المتأمل.

هذه العلاقة أمكن التعبير عنها من خلال خاصية التكرار والتماثل في الابتكارات الزخرفية؛ فالفنان المسلم لا يوجد الجملة التعبيرية زخرفيا ككيان واحد متكامل، بل هي أولا جوهر فرد غير قابل للتقسيم أو التجزيء، وبفعل عمليات التكرار والتماثل المحكومة بالعلاقات الرياضية المنطقية، تصبح هذه الوحدة البسيطة كيانا أكبر ذا قيمة جمالية أشمل.

هذا التواتر في الوحدات البسيطة والتناسق يدخل المتأمل بإيقاع موسيقي متراكب يتجاوز البساطة إلى التعقيد في رحلة من الجمال الظاهري (الجمال لأجل الجمال) إلى الإحساس بسمو المشاعر وصعودها في معارج الإجلال الجمالي، فيحس مقدار وجوده النسبي ضمن دائرة الكون كوحدة ترتبط مع الوجود المطلق للخالق تعالى القائل وقوله الحق ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(الحديد:٣–٥).

وكانت "نقطة" فـ"خط" ثم "دائرة"، وكأنك تلف بعبارات التسبيح "سبحان الله" و"الحمد لله" داخل دواخل النفس والروح في استظهار للصفات الإلهية يمكن استجلاؤه من خلال التأمّل العميق المسلّح باليقين والفهم الصحيح لعناصر مبادئ التصميم الزخرفي في الفنون الإسلامية كركيزة من ركائز الإحساس بجلال ديننا الحنيف وعظمته وجماله. ■

(*) كلية الفنون الإسلامية، جامعة البلقاء التطبيقية – السلط / الأردن.



## الربيع الأخضر

يا رَبيعنَا الأخضر...
يا شذَى الخضرة في كل مكان...
أيُّ عاصِفٍ غضوبٍ عصَف بِك؟!
فإذا الْمَحْلُ يَعُمّ... والْجَدْب يَنتشر...
وذهول مخيف يغشَى الجميع...
وصمتٌ كتومٌ يغلُّ الألسنة...
والمؤمنون بالخُضْرة يقاومون...
ثُمّ يتابعون... وبعد ذلك يصمتون...

* * *

من شروط تقدم الأمة اجتماعُ أفرادها على وحدة الهدف والغاية. فلا يمكن توقع تقدم صحيح وسليم في مجتمع انقسم أفراده شيعاً وطوائف متناحرة.

***

# ليلى

(مجنون ليلى)

يقولون ليلى في العراق مريضة فيا ليتني كنتُ الطبيبَ المداويا

أديب إبراهيم الدباغ*

الأُم تخاطب ابنتها "ليلى":

يا قمر الليالي... يا ندى الأسحار... يا رقيقةً كالورد... يا طاهرةً كالثلج... يا نقيّة كالطّل... يا أريجًا سماويَّ الشذى... يا فراشةً شرابُها الطُّهر، ورحيقها النور.. ليلى! يا حبّة الفؤاد... من قلبي الوجيع أُناديكِ... ومن روحي المتألّمة أسألك... ما بكِ يا ليلى؟.... يا لعَينَيك المطفأتين... ويا لـخَدَّيك الشاحبين... عاصف حُزْنٍ يجتاحُكِ... وأسًى دفينٌ يَلُفُّكِ... ظلمة غشيتكِ... وليلٌ ألْيَل طواكِ...!

من المدرسة جئتِ... وسريعًا إلى غرفتك دَلَفْتِ... وحقيبةَ كُتبُك على الأرض ألقيتِ... وَوجهَك بين يديك دَفَنت... وبالبكاء أجهشْتِ... ودمعًا غزيرًا سكبتِ... وآهات كثيرات أطلقت... لماذا يا ليلى...؟ بحق الله قولي، ماذا دَهَاكِ... وأيُّ خَطبٍ اعتراكِ...؟!

ليلى:

أُمّاه... يا أُمّاه... إلى صدرك الحنون ضمّيني... وتحت جناحِ أُمومَتِكِ آويـــني... واغسليني وطهّريني... وإن شئتِ فاقتُليني... ومن عاري خلّصيني... ليلى اليومَ أنقاض... شظايا إنسان... فُتاتُ لؤلؤةٍ مسحوقة... لهب أحمر يلهبُ كياني...

دخان شيطانيّ أسود يجتاح روحي...

أدركيني يا أُمّي، أدركيني... دثّريني... وعن كلّ عين احجُبيني... وفي التراب دسّيني... ليتني متُّ قبل هذا ونسيًا منسيًا كُنتُ وَدُفنتُ... وعن الأنظار تواريتُ...!

من قارعة الطريق أخذوني وقيّدوني... كمّمُوا فمي... أوجعوني ضربًا... ذئبٌ عَوَى... ثم عَدَا وَسطَا... وكشَّر عن نابٍ ومخلَبٍ... ولاَّغُ دَم... سفَّاح حُرمَة... خَطَّاف عِرضٍ...

ها أنَذي بين يديك... كسيرة الجناح... مُحطَّمة النفس... مُلَوَّثة الروح... مثلومة الشرف... فافعلي بي ما شئتِ...!

الأمُّ:

وَيْلمُك يا ليلى... يَا لَهَولِ ما أسمع... ويا لفَجيعة ما أرى... تفَجّرْ يا قلبي أسًى... احْترقْ يا فؤادي ألَمًا... وانزفي يا روحي دمًا...!

أوّاهُ يا ليلى... أعَليكِ أنُوح...؟ أمْ على نفسي أنا نائحة..؟ يا برُوق السماء أبرُقي وارعُدي وزمجري... وجَسَدَ ليلى حَمّمي وطهري... وصدَأَ الروح الْسَعي وامْسَحي... وغاشيات العذاب أحرقي... لَفَّ "الليلايَ" عَاصفٌ مجنون... غَادرٌ بالإثم مشحون... يا أيُّها الوَيلُ الوبيل: يا مغتال البسمات... يا خانقَ الضحكات... يا مُجَفِّفَ ماء الحياة... شابَت ليلى... صوَّحَت زهرة الحياة فيها... غَدَتْ خَلاَءً مهجورًا... وَجذعًا منخورًا... وقلبًا مفطورًا... وروحًا مدحُورًا... وأمَلًا مقهورًا...!

رُحماكَ يا رَبُّ... ماذا أفعل...؟ وأيّ باب أطرق...؟ وبِمَنْ ألتجي وأستجير؟.. على بَلْوانا يا ربُّ أعنّا... وصبرًا ألهمنا... وحَنَانًا من لَدُنكَ أعطنَا... زَكّنا... طهّرنا... وإيمانًا عظيمًا امْنحنا... داوِ جرَاحاتِنَا... وعلى آلامنَا قَوّنا...!

يخرج الطبيب من غرفة "ليلى" في عينين طافحتين بالدموع، فتستقبله الأمّ المفزوعة في جانب قصيّ من جوانب حديقة المنــــزل.

الطبيب للأمّ:

"ليلاكِ" –سيدتي– فقدتْ إلى الأبد شهيّتها للحياة، انْطفأ حماسها... همدت روحها... فما جدواي إذن... وماجدوى دوائي وعلاجي... نحن الأطباء نأخذ بأيدي أولئك المرضى الراغبين بالحياة... المتشبثين بها... العاضّينَ عليها بالنواجذ... أمّا العازفون عنها... والصادّون عنها... فكيف نُعينهم... ومن أمراضهم نقيلهم...؟

ليلى –اليومَ– شلاّء الروح... كسيحة الإرادة... جامدة الأحاسيس... ميّتة المشاعر... وإلى أعماق عدمية سحيقة أخذتها لجج اليأس... وألقت بها إلى خلاءٍ نفسيّ ساكنٍ عديم النبض... إني أعلن –والألم يمضّنـــي– عن إخفاقي في كل ما بذلته من جهدٍ لاستلال "ليلى" من عالم "اللاّمعنى" الذي دفَعتها إليه معاناتُها الجسدية والنفسية...!

الأُم في وَلَه مخيف وأنينٍ يُقَطّعُ نياط القلب:

ماتت ليلى!.. ليلى ماتت!.. فيا أرض اسكني ولَيلايَ فاحتضني... ويا سماءُ أبوابًا تفتحي وروحَ ليلى استقبلي...!

يا عذَارَى التُّقى... حقًّا ماتَت ليلى...؟ يا صويحبات ليلى أين ليلاي بينكُنّ...؟ هل طوَيتنّ بساط ليلى وإلى الأبد...؟ فلم يَعُدْ لليلى بينكُنّ بساط...؟

وعلى الأرض خَرّت ساجدة... مجنونةً هي القبلاتُ التي قبّلت بها الأرض... تأوهت... زفَرَت... سَالَت دموعها... ذرفَت عَبَرات حَرّى... اخْتَضّتْ نفْسُها... اخْتَلَجَ بَدَنُها... شَعَرَتْ وَكأنّ روح العالم يبكي في روحها... أنبياء وأولياء زاروا روحها في تلك السجدة الفريدة... ويد الله تلفُّ الكونَ وفي قلبها تضعه لكي يخفقا بالآلام معًا... ومأساة الأرض –كُلّ الأرض– لم تَعُد غير سطرٍ شاحبٍ في كتاب مأساتها الكبير... وفي شرود لُبّ وتيه نظرات تهتف بِمَن حولها:

خَلُّوا سبيلي... دعوني أضرب في الأرض وألاحق قبسي المنير... وأعْدو وراءَ ضوئي الشارد...!

وفي لحظة قدسية تنتبه إلى نفسها:

اشْكُري اللهَ –يا امرأة– الذي وهَبَكِ هذا القلب الكبير اللاّئق بهذا الألم العظيم...

وإذا بوجهها يشرق بابتسامة فيها توسل ورجاء... وبقلبها يومض فيه نور سكينةٍ ورحمة...! ■

---

(*) كاتب وأديب / العراق.





الذيـن يُجافـون الديـن ويرفضونـه سيسـقطون عاجـلاً أم آجـلاً فـي هـوة الاسـتهانة بالعِـرض والأمـة والوطـن.

***

# وا صلاتاه!

عبد الله دميرجي*

ولّى ضوء النهار، وزحـف الظلام إلى غرفته الضيقة المتواضعة، وهـو متمدد على الأريكة يستريح. سمع صوتا رحيما من الغرفة المجاورة:

– أعتمت الدنيا.. فات الوقت.. صلاة المغرب يا ولدي!..

كانت جدّته في غروب عمرها، ورغم ذلك كانت حريصة كل الحرص على أداء صلاتها في أوقاتها.. بينما حفيدها الشاب اليافع تعود ألا يقوم للصلاة إلاّ قبيل انقضاء وقتها معلّلاً ذلك باستغراقة في الدراسة. وثب من مكانه بقلَق:

– آآه.. فات الوقت!..

فتوضأ بسرعة ثم وقف إلى الصلاة دون أن يجفف وجهه

وذراعيه.. أتم صلاته على عجل ثم اتّكأ على الأريكة وراح يتمتم بالأوراد..

حلّ عليه التعب، فوضع رأسه على ذراعه على طرف الأريكة واستمر في التسبيح. وما لبث أن ران عليه النعاس وملك عينيه..

...

ساحة تعج بالخلائق.. رؤوس ناظرة، وقلوب واجفة، وأبصار خاشعة، وأصوات صاخبة متداخلة.. لا يدري أحد ماذا يُصنع به وما تكون عاقبته!. جال ببصره هنا وهناك ثم أرسل نظراته إلى بعيد فرأى منصة عالية يجلس عليها بضعة نفر في ملابس بيضاء.. وإذا بهتاف يدوّي:

– لمن الملك اليوم.. لله الواحد القهار..

قال في غاية من الدهشة والاستغراب وقلبه يخفق خفقا:

– يا إلهي، أين أنا؟!..

وإذا بموجة شرية عارمة تأخذه في دوامتها وتجعله يفيق من ذهوله.. وإذا بمناد ينادي من مكان بعيد:

– مراد بن سميّة...

تلفّت يمنة ويسرة ثم قال بصعوبة:

– أأأنا!

تفصّد جبينه عرقا وتلاحقت أنفاسه وشعر بالاختناق.. فأمسكه حارسان عملاقان من ذراعَيه وساقاه إلى المنصّة..

بدأت رحلة الحساب التي تبدو بلا نهاية.. كلما طُرح عليه سؤال خاب سعيه و لم يتحقق ما كان يأمله.. تصبّب العرق من جبينه تصببا. طالت المحكمة واشتد الكرب، وعيناه مركوزتان على الميزان باضطراب وقلق.. ثقُل عمله تارة وخفّ تارة أخرى.. أمل الفوزَ تارة وخابت آماله تارة أخرى.. وأخيرًا.. رجحت سيئاته على حسناته، وصدر الحكم:

– خذوه إلى جهنم..

تحول العالم في عينه إلى كتلة من السواد الكالح.. لا يكاد يصدق ما يسمعه. شعر بإنهاك رهيب فأرخى يديه وحدّق بعينين مرعوبتين..

– ماذا!.. إلى جهنم!! كلاّ!!..

تذكر صلاته التي كان يؤديها في اللحظات الأخيرة من وقتها.. فاغرورقت عيناه وفاضت دموعه حزنا وندما. قال بحرقة قلب:

– يا لحماقتي وغبائي.. يا لمصيبتي وبلائي!..

أقبل الزبانية عليه.. فأشاح بيده في رعب وأطلق صيحات استرحام خرقت الفضاء. جعل يستغيث بربه، يدعوه ويناشده. فما عاد ينطق سوى بكلمتَي "الرحمة" و"الصلاة".. راح يلتفت إلى الوراء علّ الله يتداركه برحمته، وعسى صلاته تدركه فتشفع له وتنقذه.. ولكن هيهات هيهات..

سحَبه الزبانية إلى جهنم سحبًا. وكلما اقترب منها خدش سمعَه أصوات العذاب الذي تقشعرّ منه الجلود. التفت وراءه مرة أخرى مستغيثًا بالله راجيا رحمته.. وما إن وصل إلى شفير جهنم حتى صاح وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

– أما سعيتُ جاهدًا في خدمة ديني مطيعًا أوامر ربي!؟ أما أدّيتُ دَوري في سبيل عقيدتي!؟ أما وهبتُ نفسي لخدمة الإنسانية والرسالة الربانية!؟ أما صلّيت!؟ رحماك يا رب!..

انتهى كل شيء.. خسر الدنيا والآخرة.. وأخيرًا، دفعه الزبانية إلى النار الحامية.. وبينما كان يتدحرج إلى قعرها وإذا بيد تمسكه وتجذبه إلى الأعلى وتخرجه من بين ألسنة النيران الملتهبة..

– يا إلهي ماذا يجري!!؟..

رفع رأسه وإذا برجل ذي لحية ورداء بيضاوين يفيض النور من حوله، يقف أمامه:

– لا تخف!..

حدّق فيه باندهاش وهو يلهث:

– مَن أنت؟!

– أنا صلاتك!..

– أنقذتَني في آخر لحظة!.. ما الذي أخّرك عني؟ كادت النار تبتلعني!.

هز رأسه وقال باستغراب:

– أما تذكر أنك كنتَ تؤخرني إلى اللحظات الأخيرة من وقتي؟..

...

انتفض من غفوته على صوت ندي ربّاني.. إنه أذان العشاء.. رفع رأسه وجبينه يتفصد عرقا.. وثب من مكانه وهرع إلى مكان الوضوء.. ■

---

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.







# الطاقة التحويلية من السلب إلى الإيجاب عند الإنسان

أ.د.هارون أوجي*

يمكن تحويل جل الوقائع ذات الصور السلبية إلى وضع إيجابي، أي إلى منافع لنا وللإنسانية عبر تأطيرها من جديد. وجل الذين تركوا بصمات هامة في الفكر والحياة، وكانوا روّاد الإنسانية في العالم، همْ أُناس تعرضوا للمحن والابتلاءات طوال حياتهم أو في حقبة منها. ولم تكن تلك المحن والابتلاءات تحمل في طياتها سوى مزيد من معاني. هل من نَبيّ لم يتذوق الأذى ولم يتعرض للمحن؟! وهل ثمة من استطاع الإطلال على آفاق عالم جديد دون التعرض للسجن والتهجير؟ لقد اعتبر هؤلاء الناس تلك المعوقات، كالمرض والقهر والتهجير وما شاهها سُلّمًا يرفع من شأنهم ويقربهم من النجاح، كما أنهم لم يتخلوا عن العزم وكانوا على ما أصابهم صابرين.

ونحن كبشَر، نواجه في الحياة أحداثا عديدة لا نريدها ولا نستسيغها، مثل التعرض للانتقادات والمرض والظلم والتنحية والسجن وخسارة الأموال. فكثير من الناس ينفعلون إزاء هذه الأحداث وتحبط معنويّاتهم ويتمرّدون ويغضبون ويحزنون ويتخبطون ويستولي عليهم القلَق، أمّا الذين استطاعوا أن ينظروا إلى الحياة والوقائع من زوايا مختلفة فهم يواجهون تلك الأحداث بأخذ العبرة والصبر والتجلّد والشجاعة، ويرون فيها تحذيرا لهم أو يعتبرونها وسائلَ ترفعُ من شأنهم. وفي الواقع، ترتبط فحوى هذه الأحداث والمعاني بما رسَمنا لها نحن من حدود ووضعنا لها من أطر.

## كل شيء في الكون جميل

هناك جمال حقيقي في كل شيء حتى في الأشياء التي تبدو قبيحة؛ وكل شيء وكل حدث في الكون جميل بذاته أو باعتبار نتائجه. ولئن كانت بعض الأحداث تبدو قبيحة ومعقدة في الظاهر فإنها تضمر وراء ذلك حكمًا عجيبة وجمالاً رائعا. ومَن منا يستطيع أن يذكر لنا مخلوقا وُجد مصادفةً، خاليا من أيّ معنى ولا هدفَ له؟ انظروا إلى الذرة، وتمعّنوا في الخلية، وتحرّوا عن الإنسان في جميع أعضائه، وتدبّروا في النظام الحيوي الذي نحن فيه، وفي منظومة الشمس والفضاء اللامتناهي. في أيّ منها توجد المصادفة والعبثية واللاغاية؟ كلّنا يدرك أن موسم الشتاء ذا العواصف والثلوج يخلّف ربيعا جميلا، ولذلك نحاول أن نستشف الجمال الجوهري الذي يكمن في هذا الموسم دون الوقوف عند الوجه العابس له. وإذا لم نستطع أن نفعل ذلك، فإن الشتاء يكون فترة مؤلمة بالنسبة إلينا. هل سبق لكم أن رأيتم أناسا يسبّون الرياح والأمطار؟ هؤلاء يستاؤون من الرياح التي تسوق السحب وتنزل المطر وتشيع كل هذا الجمال.. ويمتعضون بسبب قصر أنظارهم

وبسبب ما يلحق بمصالحهم الضيقة من ضرر طفيف دون التفكير في أنهم سيفتقرون إلى الماء لولا تلك الأمطار. وهؤلاء الناس لهم وجهة نظر ضيقة وسلبية، ينظرون إلى الأحداث من منظار أنانيّ حاصرين ذلك بمصلحتهم الضئيلة.

وقد تؤدي الأحداث التي تبدو حسنة إلى نتائج سيئة، وكذلك الأحداث التي تبدو سيئة قد تؤدي إلى نتائج خيّرة. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١٦). قد نتحسر على فوات أمرٍ لهثْنا وراءه ولكن بعد مضيّ مدة تستجد أحداث وتنكشف لنا أن الخير كان في عدم تحقق ما نريد؛ بينما هناك أمور نكره وقوعها في أول وهلة ولكن نحمد الله على وقوعها، لما تنطوي عليه من الخير.

**الطفل الذي يُبصر خارج المعتاد**

إن أحد طرق التأطير والنظر إلى الوقائع من زوايا مختلفة، يكمن في إمكانية الكشف عن المعاني الخفية في أعماق الأحداث. قامت مجلة "Baltimora Sun" الأمريكية بنشر مقال كان لافتًا للانتباه، ولذا أعادت مجلة "Reader's Digest" نشره في ما بعد، تحت عنوان "الطفل الذي يبصر خارج المعتاد". والطفل المذكور في النص هو "كالفين ستانلي" (Calvin Stanley). وكان كالفين طفلا كسائر الأطفال يقوم بكل شيء ما عدا الإبصار، فهو يقود الدرّاجة ويلعب البيسْبول ويذهب إلى المدرسة. والسؤال المطروح هنا: "كيف يستطيع القيام بكل ذلك؟".

تقول المجلة إن سر النجاح في ذلك هو التوجيه الذي تلقاه من الأمّ، ونظرة الطفل إلى الأحداث وفق هذا الإطار الذي تعلمه؛ إذ لما سأل كالفين أمه عن سبب العمى، أجابته بأنه ولد هكذا، ولا ذنب لأحد في ذلك. ولما سأل: "لماذا أنا بالذات؟" قالت: "لا أعلم لماذا يا كالفين، ولعل هناك خُطّةً خاصةً بك". ثم أخذت ابنها وأجلسته أمامها وأردفت قائلة: "يا كالفين أنت لا تبصر، وتستعمل يديك بدل عينيك، ولا تنسَ أنْ ليس هناك شيء تعجز القيام به". وحزن الابن لمّا شعر بأنه سوف لن يرى أمه. فقالت له الأم: "يا كالفين إنك تستطيع رؤية وجهي بيدَيك ومن خلال سماع صوتي. وبذلك تستطيع أن تحدّث الناس عني أكثر من بعض الذين يستعملون عيونهم". ونجح كالفين في مباشرة العالَم المرئي بفضل الإيمان والثقة. وبدأ يخطّط في العاشرة من عمره ليكون مبرْمجا إعلاميا في المستقبل ويبتكر برنامجا للعميان في يوم من الأيام.

والنجاح من هذا القبيل ليس حكرا على كالفين، إذ كل من له مبادئ أساسية ودعائم إسناد صلبة يستطيع تحويل وجهة نظره للأحداث إلى أمور إيجابية، ويمكنه الوصول إلى مثل هذه النتائج في كل وقت. وهكذا تتوفر للناس بدائل وخيارات أخرى وسبل حلّ جديدة في أحلك الظروف. ومهما تكن السحب كثيفة في السماء فإن من ورائها شمسًا طالعة. وأهم شيء هنا هو التطلع لرؤية تلك الفوائد العظيمة من وراء الأحداث التي تبدو سيّئة وكريهة ومعكِّرة للحياة. ورغم وجود سبل عديدة لفهم الأحداث وتقييمها، إلا أننا نميل دائما إلى تأطيرها وفق فهمنا المسبق لها. وإذا استطعنا تغيير طريقة فهمنا للأحداث فإننا سوف نجد بدائل أكثر في حياتنا.

**النظرة الأولى قد تكون مضلّلة**

التاريخ مليء بنَجاحات كبيرة أعقبت أحداثا كانت تبدو سيئة في أول الأمر. ومن بينها معاهدة الحديبية التي كانت مسرحا لصرخة أبي جندل ﷺ الحزينة. وقد عذّبه أبوه أسوأ تعذيب بسبب إسلامه، مما جعله يهرب في أول فرصة من المكان الذي سجن فيه ويرجع إلى الرسول ﷺ، وذلك في وقت كان الرسول ﷺ بصدد صياغة اتفاقية صلح مع ممثل المشركين سهيل بن عمرو والد أبي جندل.

وكانت الاتفاقية تنص على أن اللاجئ من المدينة إلى مكة لا يُسلم للمسلين، وفي المقابل فاللاجئ من مكة إلى المدينة يُسلم لمشركي مكة ولو كان مسلمًا. وكانت الاتفاقية قد اكتملت صياغتها ولم يتم التوقيع عليها بعد. "فبينا رسول الله ﷺ يكتُب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه ثم قال: يا محمد قد لُجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فقام إليه فأخذ بتلبيبه. فصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين! أتردّونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ فزاد الناسُ شرا إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصْبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا وإنا لن نغدر بهم" (رواه الإمام أحمد في المسند).

لقد وقع هذا الحدث بعد مضي ست سنوات على هجرة

المســـلمين من مكة إلى المدينة؛ حيث توجّه المسلمون إلى مكة في شـــوق لرؤيتها وللطواف بالكعبة، ونزلوا بمكان يطلق عليه اسم "الحديبية". وكان المشركون لا يريدون مجيء المسلمين إلى مكة، وتم الاتصال بينهما عبر إرســـال الرسل حتى وقعت اتفاقية صلح الحديبية، فعاد الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة.

وبدأ المسلمون عقب صلح الحديبية مباشرة وعلى رأسهم أبو بصير ﵁ يفرون من مكة طالبين اللجوء إلى جوار الرســـول ﷺ. فقدم المدينةَ أبو بصير (رجل من قريش) وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجليْن فقالوا: "العهد الذي جعلت لنا!" فدفعه رســـول الله ﷺ إلى الرجلين. فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنـــزلوا يأكلون من تمر لهـــم، فتمكن أبو بصير من أحدهم فضربه حتى برد، وفرّ الآخـــر. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويْلُمّه مســـعر حـــرب لو كان له أحد! فلما سمع ذلك عرف أنه ســـيرده إليهم فخرج حتى أتى "ســـيف البحر". وانفلـــت منهم أبو جندل بن ســـهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخـــرج من قريش رجل قد أســـلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يســـمعون بعِير خرجت لقريش إلى الشام إلا عرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالَهم. فأرسلتْ قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لمّا أرسل من أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَـــفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(الفتح:٢٤)

وكانت تبدو معاهدة الحديبيـــة في أول وهلة وكأنها في غير صالح المسلمين، ولكن بمقتضى الاتفاقية التي ألزمت الطرفين بعدم المحاربة طوال عشـــر سنوات، أرجعت الســـيوف إلى أغمادها، فتوفرت فرص الاتصال والاحتكاك بين المســـلمين والمشركين. وكانت مناسبة سانحة للانطلاق في فتح القلوب والعقول، حيث تعرّف خلالها مشـــركو قريش على المســـلمين عن قرب، ورأوا صدقهم واستقامتهم وعرفوا جمال الإسلام. كما أن شخصيات كبيرة مثل "خالد بن الوليد" الذي أبى أن يُهزم بالسيف و"عمرو بن العاص" الداهية السياســـي دخلوا في صـــف القرآن الجذّاب طوع أنفسهم. وخلال سَنَتين فقط من إبرام الاتفاقية، بلغ معتنقو الإسلام أعدادا أكبر ممن أسلم خلال ما يقارب عشرين سنة، أي منذ بعثة الرســـول ﷺ إلى وقت إبرام هذه الاتفاقية. ونلاحظ هنا فطنة نبوية تتجاوز وجهات النظر البشـــرية. كان الرسول ﷺ قد رأى فوائد مستقبلية عند إبرام هذه الاتفاقية، وانتهز جميع الفرص خطوة تلو أخرى ليبلّغ رسالته إلى أكبر عدد من الناس.

**وجهة النظر في الحياة اليومية**

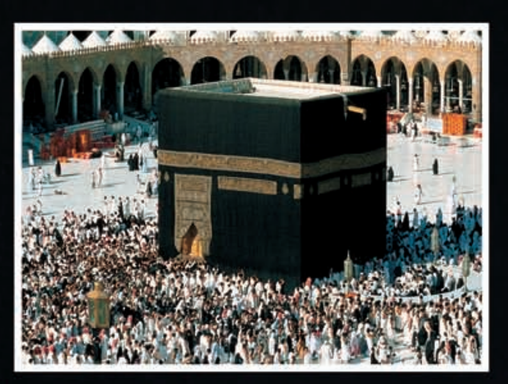
إن من يمعن النظر فيما تعرض له من الأحداث في الماضي ويسعى إلى الكشف عن أســـبابها الحقيقية يعثر على نتائج مذهلة، حيث يكتشـــف أنّ مِن وراء تلك الأحداث تنبيهـــا أو إنذارا أو تحذيرا له. وإذا واجهنا صعوبات تحـــول بيننا وبين ما نرغب فيه ونصرّ عليه، فإن علينا التريّث آنذاك للكشـــف عن نوايانا الحقيقية؛ هل ســـنظلم الآخرين إذا حصلنا على ذلك الشيء؟ وهل نلتزم العدل في استعمال قدراتنا وإمكانياتنا؟ وهل لنا آمال سيئة؟ هل نحتاج إلى كفاءة أكبر لوظائف أهمّ؟ وهل هناك نقص في شخصيّاتنا؟... بهذه الأسئلة وغيرها نستطيع حل المعاني الكامنة في أعماق الأحداث.

ولنؤطر هـــذا الحدث الذي قد يصادفنـــا في حياتنا اليومية؛ غضب منكـــم صاحب العمـــل فعاتبكم. ماذا ســـتفعلون؟ إذ بإمكانكم حمل ذلك على وجه إيجابي أو ســـلبي. وإذا نظرتم إلى هذا الحدث من زاوية سلبية، فإنكم ستشعرون بالحزن والغضب من صاحب العمل وربما يطير نومكم. وتفكيركم الســـلبي هذا سيولد نتائج سلبية. أما إذا كانت نظرتكم إيجابية فإنكم ستسعون إلى مراجعة وضعكم بالقول: "كان بالإمكان أن يطردني صاحب العمل فورا، وأكون عاطلا عن العمل.. وهذا الأمر أحســـن من ذاك. وهـــو يهتم بي. وكل بني آدم خطّاء". وبذلك نتعلم كيفية الحوار النفسي وأسلوب الخطاب مع الآخرين، وكيفية النظرة إلى الأحداث، وهذا مهم جدا.

وإذا كنـــا لا نملك فنّ تأطير الأحداث والنظرة إليها من زوايا مختلفة، فإننا ســـوف نراها من حيث يراها الآخرون. وهل قِطاعُ الإشـــهار ســـوى تأطير لمدى فهم الجمهور للأحـــداث وإعادة صياغتها من جديـــد؟ وإذا لم نقم نحن بتأطـــير تلك الأحداث بأنفســـنا فهل ســـنرى غير ما يُقدَّم إلينا؟! يستخدم العاملون في مجال وسائل الإعلام قوة التأطير بشكل جيد. ولنفكر في الوقائع الاجتماعية التي نلتقط معانيها كما تقدمها إلينا وســـائل الإعلام دون أن ندرك الصورة الحقيقية في جلّها. ومن سيتفطن إلى وجود خـــداع أو خطة مغرضة عندما يوضع الحـــدث البريء في إطار بشع؟ اللهم إلا إذا كانت لدينا ركائز قوية نستند إليها عند تأطير الأحداث وعند النظر إليها من زوايا مختلفة، وذلك عبر التساؤل مع أنفسنا وعبر التفكير السليم. وآنذاك يمكننا التفطن إلى الوجه الحقيقي لتلك الأحداث. ■

---

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى ستيتي.



# روعة الانتساب التعبدي

أ.د. فريد الأنصاري*

ا

العبادة، هي عنوان الجمال في الإسلام، وشعار المحبة. وإذا أحب الله الإنسان خاطبه بلفظ "عبدي" أو "عبادي".. فنسبه إليه تعالى نسبة خصوص وإضافة.

والعبودية دالة على خضوع وانقياد، في غير سخط ولا إكراه، ولكنه خضوع المحب الرَّضِيِّ. ومن هنا لم تكن الأعمال لترتقي إلى مستوى العبادة حقيقة إلا إذا أدّاها العبد برضاه.. ولو كانت هذه الأعمال من أركان الإسلام، من صلاة وصيام وزكاة وحج. وقد ذكر العلماء أن الغني إذا امتنع عن أداء الزكاة، فقَوَّمَ السلطان عليه ماله وانتزع منه مقاديرها وصرفها في وجوهها، فإن ذلك يسقط عنه حقوق المستحقين، ولا يكلف بإعادة إخراجها بعد، ولكنه لا يسقط عنه حق الله؛ لأن حق الله في العمل إنما هو الشعور بالتعبد. وهو معنى الرضى والمحبة الذي يُخالط قلب العامل عند الدخول في عمله. ومن هنا كانت حقيقة العبادة شعورا وجدانيا قبل أن تكون أعمالا مادية، وكانت إحساسا بحب من يوجه إليه العمل وهو الله تعالى، لا "ضريبة" يؤديها المرء وهو كاره.

## رغبة لا رهبة

إن العبادة "رغبة" قبل أن تكون "رهبة"، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ أما "الخوف" المذكور مع "الرجاء" في سياق التعبد فله مدلول آخر. ومن هنا كان وصف الإنسان بأنه "عبد" من أحب الأسماء والصفات الإيمانية إلى الله، ومن أحسنها في تسمية الإنسان، كما ورد في قول الرسول ﷺ: "إن أحب أسمائكم عند الله: عبد الله، وعبد الرحمن"(رواه مسلم)؛ وذلك لأن هذين الاسمين فيهما نسبة العبد إلى اسم الجلالة "الله"، وإلى أعظم صفة لله ﷻ "الرحمن": ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠). وفي ذلك ما فيه من شرف الانتساب التعبدي لله الواحد القهار.

وبهذا المعنى استُعْمِلَ مصطلح "الانتساب الإيماني" أو "التعبدي" في الفكر الإسلامي؛ للدلالة على خصوص استناد العبد إلى الله في كل أمره، وما يجده في ذلك من أذواق وجمال.

ولعل الأستاذ بديع الزمان النورسي -رحمه الله- هو أول من استعمله بهذا الوضوح الاصطلاحي، في سياق تجديد الفكر



التربوي الإسلامي؛ إذْ كَشَفَ النقاب بقوة عن مشاهده الجميلة، فرسم بذلك لوحة وجدانية خالدة، كلما طالعتَ أنوارَها تَدَفَّقَتْ بالأسرار. ذلك أن المسلم عند النورسي لم يعد -باعتباره عبدا لله- مجردَ اسْمٍ عَلَم ينادَى، أي: "عبد الله" أو "عبد الرحمن"، وإنما هو صاحب وَظيفةً مستنبطة من التفكر الخفي، والتدبر الْمَليِّ؛ لطبيعة العلاقة بين المضاف والمضاف إليه، في اسم "عبد الله" الذي هو اسم وظيفي -لا عَلَمي- لكل مسلم حق. إن الإضافة النحوية لها دلالة عظيمة، على مستوى المعاني بالقصد البلاغي والإيماني معا؛ أعني من حيث إنها تفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف، وتفرده به، على سبيل "الامتلاك". وكذا اختصاص المضاف بالمضاف إليه، على سبيل "الاستناد" و"الانتماء".

### علاقة النسبي بالمطلق

وهنا تكمن خطورة المصطلح "الانتساب"؛ لأنه تصوير لعلاقة المطلق بالنسبي وما يكتسبه هذا من ذاك. فعلاوة على دقة العلاقة بين مفهومين لا يجمعهما في المنطق إلا معنى التضاد؛ بينما هما هنا يلتقيان في المعنى الإسلامي، في التناسب الجميل المستفاد من علاقة العبادة، وما تحمله من ظلال روحية هادئة. علاوة على ذلك كله فإن المصطلح المدروس يصور بأدقّ ما يكون التصوير الرقي الإنساني، في مدارج الإيمان، حتى يكون أهلا لمقام العطف الرباني والتضييف الرحماني.

وإني لأحسب أن تجديد التدين في المجتمع الإسلامي، لو أنه سعى هذا المسعى القائم على تحقيق معنى "العبودية"، حيث كانت الإضافة فيها إلى الرحمن نقطة استناد؛ لكان له اليوم شأن آخر؛ إذ يمنح العبد معنى القوة والمنعة والحياة، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٥). فـ"يـاء" الضمير (المضاف إليه) الدال على الذات الإلهية، يخص المضاف (عباد) بخصوص "الانتساب" الذي يكتسب منه "العبد" شرف النسبة إلى الملك العظيم رب السموات والأرض. فذلك ما عبّر عنه الأستاذ النورسي بـ"الانتساب الإيماني"، كما في قوله يخاطب المؤمن: "إنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة".[١]

### الانتسابية

وبهذا المعنى فسَّـرَ رحمه الله سـرَّ بدء الأعمال كلها في الإسلام بـ"بسم الله الرحمن الرحيم". يقول: "إن الذي يتحرك ويسكن، ويصبح ويمشي بهذه الكلمة "بسم الله" كمن انخرط في الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحدا، حيث إنه يتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء"[٢].. فهذا التشبيه البليغ مقصود للدلالة على الطبيعة الوظيفية، للخدمة التعبدية التي بها فقط ينال المسلم شرف الانتساب الإيماني، ذلك أنه -كما يقول رحمه الله- "يرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه، رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معدوم، وذلك بسموّه إلى مرتبة خطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: انتسابه لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد".[٣]

ومن هنا كان الإيمانُ الْمُبَلِّغُ إلى مقام الانتساب انخراطًا وظيفيًّا في حركة الجمال، حيث عمل النورسي على تحسيس طلاّبه بالذوق الانتمائي للإسلام، وتجديد مفهوم الصفة الإسلامية التي أبْلَتْها العادات الاجتماعية، وطمستها الظلمات الإلحادية الزاحفة.[٤]

ثم إن الناظر في النصوص الشرعية المتضمنة لمفهوم "الانتساب" في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أن لله ﷻ في مناداة الإنسان وتسميته باعتبار "النسبة" ثلاثة أحوال: الأولى أن ينسبه إلى جبلَّته وطبيعته الخِلقية، فيسمّيه "الإنسان". والثانية أن ينسبه إلى أبيه؛ فيسمّيه "ابن آدم" و"بني آدم". والثالثة أن ينسبه إليه تعالى فيسمّيه "عبدا"، أو "عبدي" أو "عبادي". ووحدها هذه النسبة الأخيرة تكون في سياق المحبة الإلهية العالية للعباد. فلا يذكر الإنسان بوصفة عبدا إلا للدلالة على حب الله له؛ إذ العبودية محبة متبادلة بين الرب الأعلى والمخلوق الأدنى.

### لماذا "الإنسان"؟

ولبيان تفرد وصف الناس "بالعباد" بمعاني المحبة والتقريب، نذكر خلاصة مركزة عن كل من التسمية "بالإنسان"، والمناداة بـ"بني آدم": ففي الأولى يسمي الله الإنسان "إنسانا" في سياق الابتلاء، وتحميله المسؤولية والأمانة. وهي عبارة ذات وقع حيادي على نفس المتلقي والقارئ للقرآن. ولذلك كانت أوضح الآيات في هذا المعنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). فبقيت عبارة "الإنسان" في القرآن محملة بهذه الدلالة، ومشحونة بهذا الإيحاء. إنه إذن صاحب أمانة؛ أمانة تكليف واستخلاف. ولا أمانة إلا وهي تلقي على صاحبها تبعات كبرى، أقلّ ما فيها المتابعة والمحاسبة.

ومن هنا كان بتحمله الأمانة ظلوما لنفسه، جهولا بخطورة ما تحمل وتقلد. فكان الحكم الابتدائي عليه بالخسران، لأنه راهن

على شــيء أكبر من حجمه؛ فلا ينجو من حيث هو "إنســان" إلا على ســبيل الاســتثناء ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِيــنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣). وهو استثناء ثقيل يحمل -بعد الإيمان والعمل الصالح- شروطا ثقيلة: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتلك هي خلاصة الأمانة. فالإنســان إذن مخلــوق مغلول إلى التزامه، مرهَن بقضيته ﴿وَكُلَّ إِنْسَــانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾(الإســراء:١٣)، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُــدًى﴾(القيامة:٣٦). بل هو ملزم بالسير الدائم إلى ربه، سير تتخله المشاق والصعاب؛ لأنه يشق طريقا تخالف ما تشتهيه نفسه البشرية، من دَعَة وملذات دنيوية ورغبات حيوانية؛ ولذلك عــبر الله ﷻ عن هذا المعنى بـــ"الكــدح"، وفي ذلك ما فيه من الإيحاء بمشقة الســير، ووعورة الطريق؛ قال ســبحانه﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦).

و لم يكن ابتلاء الإنســان مهددا بالخســران؛ إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية، التي تشــده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية "ابتلائه" أن يرتقي إلى السماء. فأعظم به من امتحان عســير، قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾(الإنســان:٢). فكانت الآيات بمســاقاتها تشير إلى أنه كلما انْقَضَّتْ عليه طبيعته الطينية، استجاب لأهوائه وشهواته.

ولذلك كانت لــه في القرآن الكريم -بهذا الاعتبار- صفات وأحوال كلها تدور حول هذا المعنى، يقول ﷻ ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَــأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٤).[٥] إنهــا إذن؛ صفات مرتبطة بالخلق والطبيعة الجبلية، ولذا كان التعبير عنها في كثير من الآيات بلفظ ﴿كَانَ﴾ للدلالة على الثبات والاستمرار كما في التعبير بها عن صفات الله ﷻ في القرآن، وذلك نحو: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء:١١).[٦]

هذا هو الإنسان! تعبير لا يوحي بالأنس والطمأنينة والسلام وإنما يوحي بالتكليف والحساب!

**التوصيف بالآدمية**

وأما الثانيــة فهي نداء الله عباده بتعبير "بني آدم"، وهو قريب في الدلالة من لفظ "الإنسان". بل إن بينهما تداخلا واشتراكا؛ لأنه إذ ينسب إلى أبيه آدم عليه السلام يحيل على خصائص "الآدمية". وآدم عليه السلام هو ذلك المخلوق من طين، المنفوخ فيه من روح رب العالمين. إلا أن الإيحاء هنا لا يركز على جانب الأمانة والمسؤولية والتكليف، بقــدر ما يركز على جانب واحد من ذلك كله؛ ظاهر على كل الصفات المضمرة في "الآدمية"، المشاركة للفظ "الإنسان". وهذا الوصف الظاهر البارز في النداء بـــ"بني آدم" هو: ضعف العزيمة والنسيان، وهو مأخوذ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِــيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(طه:١١٥). ولذلك كان النداء بـــ"بني آدم" دالا على معنى التذكــير والتنبيه؛ إذ تعلق بمخلوق شأنه العام هو النســيان وضعف العزيمة. قال تعالى مذكرا ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّــيْطَانَ﴾(يس:٦٠). وهذا العهد هو المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢).

وهو التنبيه الذي تكرر على ســبيل التحذير في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِــي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّــيْطَانُ كَمَا أَخْــرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾(الأعراف:٢٧). إنه تذكير للإنسان بـــ"آدميته" ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

وكل ما عبر فيه بوصف الـــ"آدمية" والنسبة إلى الأب الأول، ملحق بهذا المعنى، ولو جاء في سياق التكليف الجزئي، فإنه يحمل في داخله التنبيه إلى خاصية النســيان، وضعف العزيمة، والتحذير منها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُــلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَــى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(الأعراف:٣٥). إنه تعبير يحمل في دلالته ذلك الإيحاء الأول بالتذكير بالعهد؛ أن تخرمــه العزائم الضعيفة، والتنبيه من الغفلة والنسيان أن تحاصره الآدمية.

وقد تحيل عبارة "ابن آدم" على معنى "الإنســان" من حيث هو مخلوق على جبلة طينية شــرهة، وقد أسلفنا أنَّ بين العبارتين اشــتراكا. وعلى هذا المجرى جرى كثير مــن الأحاديث النبوية التي تضمنت هذا التعبير "ابن آدم". وذلك نحو قوله ﷺ: "لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا! ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب! ويتوب الله على من تاب"(متفق عليه). وقوله ﷺ: "إن ابن آدم إن أصابه حَرٌّ قال: حَسِّ، وإن أصابه بَرْدٌ قال: حَسِّ"(رواه الإمام أحمد في المســند) وعبارة "حَسِّ" اسم فعل مضارع بمعنى: "أتضجّر".

وهذان الحديثان إنما هما ترجمة لما ورد في القرآن عن "الإنسان" في مثل قوله تعالى عن المعنى الأول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:٦-٨).[٧]

## التوصيف بالعبدية

ويتفرد النداء الإلهي والتعبير القرآني بوصف الناس بـ"العباد"؛ للدلالة على الرضى والحب والإشفاق وكل المعاني الراجعة إلى صفات الله الرحمن الرحيم الودود الغفور؛ وذلك لما للإنسان بوصفه "عبدا" عند الله من مقام وقرب. وإنما العبد: من انقاد قلبه لربه رغبا ورهبا، وخضعت جوارحه لمولاه طاعة وحبا. وتلك هي الصفة التي جاء الدين لإسباغها على الإنسان؛ فيرقيه إلى أعلى منازل العبودية. وذلك أساس مقتضى شهادة "لا إله إلا الله". فكأن الدين كل الدين إنما هو إعطاء صفة "عبد" لهذا المخلوق (الإنسان)، أو كما قال الشاطبي رحمه الله عن وظيفة الدين المقاصدية، إنما هي "إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا".[٨]

ثم إن وصف "عبد" أو "عباد"، ولو ورد مجردا عن الإضافة، لا معنى له إلا بتقدير الإضافة. وهي النسبة إلى الله سبحانه؛ أي "عبد الله" و "عباد الله". وقد تأتي العبارة صريحة النسبة والإضافة إلى الله، وهذا فرق جوهري هام جدا، في إطلاق ألفاظ: "الإنسان"، و"ابن آدم"، و"عبد الله"؛ إذ ينسب في الأول إلى أصله الخلقي الجبلي، وينسب في الثاني إلى أبيه، وما تحمله هذه النسبة من دلالة على طبيعة "آدم"، بينما يتفرد التعبير الأخير بنسبته إلى "الله"، وكفى بذلك شرفا ورفعة وجمالا.

ولذلك كان وصف "العبودية" في القرآن لا يرد إلا في سياق البشارة والمحبة والرضى الإلهي الكريم. وما لم يكن ظاهره من الآيات كذلك فهو ملحق بهذا الأصل في المعنى؛ لأن الكلية الاستقرائية إذا استقرت "كلية" رجع إليها كل جزئي، ولو بدا أنه شاذ عنها، كما هو مقرر في الأصول.[٩] وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

إن هذه الآية الكريمة هي عنوان محبة الرب لعباده في القرآن الكريم.. إنها شلال الواردات الخفي، الهامي بالرحمة والمغفرة على قلوب عباده التائبين، الطارقين باب الله، فقراء محتاجين! ولقد التقط الأستاذ سيد قطب رحمه الله منها لطائف من رَوْح الله فقال: "إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: "فقل لهم إني قريب".. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال: قريب!(...) إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين.. ويعيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين".[١٠]

ذلك أن الطريقة الغالبة في السؤال والجواب في القرآن -كما قرره علماء القرآن- أن يجيب الله ﷻ على أسئلة الناس بقوله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾؛ إمعانا في ترسيخ نبوته، ورسالته إلى الناس، معلّما ومربّيا ورسولا. وتلك خلاصة "عقيدة الاتباع" في شهادة "أن محمدا رسول الله"، وهو أغلب أسلوب القرآن في هذا الشأن. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(البقرة:١٨٩)، وقوله ﷻ:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (البقرة:٢٢٢) ونحو ذلك كثير جدا.[١١]

وإنما المهم عندنا هنا أن خلو هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ من لفظ "قُلْ"، يدل على خصوص السؤال الآتي من "العباد"؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن "معبودهم" لا عن كيف يعملون في أمور الدين! إذ إن قضايا الشريعة والأحكام هي شأنُ الرسول الْمُعَلِّم، الذي بُعِثَ ليعلّم الناس كيف يعبدون الله. أما هؤلاء فإنهم الآن يسألون عن الله ذاته سبحانه، لا عن كيف يعبدونه! يسألون عن باب معرفته ورضاه! إنه سؤال محبة وشوق ووجدان؛ فهو مثل ذلك الذي قال الله تعالى فيه، في الحديث القدسي: "ذلك بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل!"(رواه مسلم)

إذن فالقضية "عبادة"، والعبادة وجدان، لا تصح إلا إذا خلَتْ من كل شريك، ولو كان نبيّا! والدين إنما هو إخلاص القلب لله وحده. وهؤلاء إنما سألوا عن مثل هذا، فلا موضع لـ "قُلْ" هذه؛ في هذا السياق! فاعبد ربك تجده أمامك بلا واسطة، ولا حجاب يحجبه عن قلبك المحب المشوق! ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.. إنه يجيبك أيها العبدُ الداعي ربَّكَ تضرعا وخفية، وإنما "الدعاء هو العبادة"[١٢] كما قال النبي ﷺ.. هكذا على سبيل الاستغراق والشمول. ولا عبادة حقة إلا خالصة لله..

## العبدية تشريف وتحبيب

فغالب الخطاب إذن للعباد -بوصفهم عبادا- تبشير وتحبيب مشوق للقلوب إلى ديار الحبيب. قال ﷻ في سياق التبشير: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(الزمر:١٧) وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ

﴿عِبَادَهُ﴾(الشورى:٢٣). وإنما يتـوب الله ﷻ على "العباد"، إذ هم الأحبـة الذين يتجاوز الرب الكريم عن سـيئاتهم مهما كثرت؛ ما داموا هم "العباد" الذين ذلوا لله وخضعوا له. قال سـبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الشورى:٢٥).

وتوبة "العبد" لحظة فرح عند الله سـبحانه، فرح يليق بجمال وجهه، وجلال سـلطانه تعالى. وقد بيّنه الحديث القدسي بيانا جميلا، فيه من معاني الشوق والقرب والتقرب، والتقريب المتبادل بـين العبد وربه؛ ما يملأ القلب ببهجة السـرور والاحتفال. إنه جمال الرب الذي يبادل "عبده" -وإنما هو عبده- بحبه حُبًّا أكرم وأعظم، وبتقربه تقريبا أشـرف وأحلم. فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "قال الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني. واللهِ لَلّهُ أفْـرَحُ بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالَّته في الفلاة!"(رواه مسلم).

ومن أروع التعابير القرآنية في هذا السياق، آية تتدفق كلماتها بل حروفها بكوثر المحبة الإلهي الفياض جمالاً يغمر قلوب كل من سمّاهم الرحمن "عبادي". ولو كانوا حديثي عهد بالضلال البعيد، والتّيه الرهيب، وشرّدوا بعيدا في ظلمات الآثام والذنوب! ثم جاؤوا فُقراء يطرقون الباب، وما بأيديهم من حسـنات إلا هذه التوبة النصوح.. قال ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمـر:٥٣). فعلامَ ييأس "العبد" أو يقنط؟! وها الله تعالى يغفر الذنوب جميعا.. نعم جميعا! أأنت الذي جئت تطرق باب الله تائبا؟ إذن، أنت آمن إن شـاء الله؛ لا تُخفك أهوال الذنوب التي تجرها وراءك، ما دمت قد جئت في الوقت المناسـب.. ودخلت إلى حضرة الرحمـة الإلهية من باب الانتسـاب إلى الله "عبدا".

نعـم، إن "العبـاد" -وهم عباد السـلام- ينعمون عند الله بالأمن والطمأنينة والسـلام، سـكينة تملأ الوجدان شـوقا إلى لقـاء الله. قال ﷻ: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُـمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(الزخـرف:٦٨). إنهم الآمنون المحميّون بجواره الحصين في الدنيا والآخرة ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(الزمر:٣٦).. بلى! وإنّ من كفاه الله حماية وحفظا لهو الآمن حقا؛ فما له وللخوف أو القلق والضياع؟ ولذلك فقد توعد إبليس اللعين أن يُضِلَّ الناسَ، ويتّخذ منهم نصيبا مفروضـا، فقال له الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٥).

فلك الحمد إلهي!.. لك الحمد؛ إذ أكرمت "عبادك" بالحفظ الجليل، والستر الجميل...

وإن للستر جمال القرب، والتناجي الودود مع الرب الكريم. أخـبر النبي المصطفى ﷺ في الحديث القدسـي، محدثا عن تجلي الرحمن لعبده يوم القيامة، تجليا يليق بكماله.. كان ذلك في حديث النجوى، وما أدراك ما النجوى! فعن صفوان بن مُحرز قال: "قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: يُدْنَى المؤمنُ يوم القيامة من ربه ﷻ؛ حتى يضع عليه كَنَفَهُ[١٣] فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أَيْ رب أعرف. قال: فإني قد سـترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فَيُعْطَى صحيفةَ حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رؤوس الخلائق: "هؤلاء الذين كذبوا على ربهم!"(متفق عليه).

وَيْ..! وما أفضل من أن يكون المرء مشمولا بوصف "عباد الله" و"عباد الرحمن"؟! ألا إنها أوصاف المحبين في الدنيا وفي الجنة معا؟! فهم هنا يسـلكون إلى الله بمسـالك عباد الرحمن، خُشَّعًا لله، حلماء، كرماء.. يَسْـرُونَ بالليل ويسربون بالنهار، مع قافلة العبّـاد، على طريق الخضرة والنور، علـى أثر الأنبياء الأصفياء، بعيدا عن مسـتنقعات الجهل بالله، والخـوض في دخان الحرائق المشتعلة بأسواق الفسـاد: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلاَمًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًا﴾(الفرقان:٦٣-٦٤).. إلى آخر السورة. وللآيات بعدها انسـياب الماء المشع برضاء الله، وعطائه الغيداق من كمـالات الصفات. كمالات تغـري القلب بمواجيد ذات أشـواق، وكؤوس ذات أذواق. لا يغنيـك بذوقها حق الذوق كأسا كأسا غير المصحف الكريم.

قال الحبيب المصطفى ﷺ ناثرا من كلام الله العلي سنى قدسيا: "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل.. فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي!. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي!. وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ قال الله تعالى: مجّدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل" (رواه مسلم).

فأيّ كـرم هذا، وأي نعماء؟ وأي فيـض هذا وأي عطاء؟

فمن يأنف أن يكون "عبدا" لله إذن؛ إلا عديم الذوق متخشب الإحساس؟! "هذا بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل" أتسمع؟ إنه يخاطبك: "عبدي!" فأنتما هناك يصل "بينكما" ودّ التناجي: "بيني وبين عبدي"! إنه وُدّ خفي، إنه بينكما.. تذوقه أنت وحدك، هناك في محراب التعبد السَّني، الموصول بواردات السماء؛ حيث التجلي الجليل يفيض عليك بالنجوى، جمالا وسلاما... فهنيئا لك يا عبد!

وما سمى الله أنبياءه الأصفياء -وهم خير العباد- إلا "عبادا".. فذلك كمال رضاه تعالى عليهم: شرف نسبتهم إليه سبحانه. وما كان منه ذلك إلا في سياق الرضى الواسع البديع. قال تعالى في شأن محمد ﷺ سيد العابدين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(الإسراء:١)، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾(الكهف:١)، وكذا قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(النجم:١٠).

وقد مدح الله الأنبياء السابقين فوصفهم بصفة العبودية له. قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.[١٤]

بل إن العبودية كانت -قبل ذلك وبعده- من أرقى مقامات الملائكة؛ قال تعالى يُجَهِّلُ الكفارَ الْمُفْتَتِنِينَ على الله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾(الزخرف:١٩).

### الأمن والسلام لعباد الله

"العباد" إذن؛ هم الآمنون السالمون بإذن الله.. هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وما ذكر الخوف في شأنهم إلا لنكتة خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾(الزمر:١٦). فمثل هذا إنما هو تخويف محبة لا تخويف بغض وغضب.. والله ﷻ أرحم بعباده من الأم؛ إذ تحنو بثديها الثر على رضيعها. إن الله ﷻ قد قرر مبدأ ثابتا قبل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(البقرة:٢٠٧).

ويا لروعة التعبير القرآني! إذ يفصل هذا المعنى الذي هو واقع منه تعالى بقصد "التخويف" التربوي، إذْ يكشف الله تعالى فيه عن جمال من سر الحب الإلهي عجيب.. جمالٍ يضرب بأنواره الباهرة في أعماق الوجدان؛ فيبهر القلوب، ويخطف العواطف! قال سبحانه ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠). يا سلام! نعم، صحيح أن الله تعالى -كما تنقل تفاسير السلف- لا يتحسّر! وإنما يصور سبحانه بأسلوب جذّاب أخّاذ ما يقع بقلب العبد المؤمن من أسى وحسرة؛ إذ يشاهد مآل الكفار ومصيرهم البئيس التعيس، وما فرطوا فيه من النعيم المقيم والخير العميم، مما لا يملك معه الإنسان إلا الحسرة والأسى.[١٥] بَيْدَ أن العبارة دالّة أيضا على منتهى الرحمة في خطاب الله لعباده ولو كانوا كافرين. وأي قلب لا يتحسر إذ يدرك هذه الحقيقة الرهيبة؟! هؤلاء الناس الذين يتسابقون سراعا نحو هاوية الجحيم، يلقون بأنفسهم في غياباتها تباعا. ﴿يَا حَسْرَةً﴾ والتعبير بـ"الحسرة" لا يكون إلا في سياق الأسى على فوت محبوب، أو ضياع مرغوب. ولذلك فهو دال على المحبة. والله ﷻ -تنزّه عن التحسر- إذ ذكر ذلك مصورا عاطفة إيمانية بشرية، سمّى أولئك الكفار "عبادا"؛ لأن السياق سياق محبة وإشفاق. والأصل في الأمر الكوني أن الله تعالى يحب الناس، كل الناس. وما كان يرضى لهم ما وقعوا فيه من كفر وضلال، فهو الذي قال: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(الزمر:٧).. ولكن هم ظلَموا أنفسهم إذْ أغضبوا الله ﷻ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾(آل عمران:١٨٢).. أفلا يستوجب الأمر إذن أن تصرخ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾؟!.. كلمات في قمّة البلاغة ودقّة التعبير.. كلمات ذات إيحاء لطيف لا يُكشف عن سره إلا ذوقا.. ■

---

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

**الهوامش**

(١) اللمعات لسعيد النورْسي، ص٣٨٨؛ وانظر: الشعاعات لسعيد النورْسي، ص١٣.

(٢) الكلمات لسعيد النورسي، ص٦-٧؛ وانظر: اللمعات لسعيد النورْسي، ص٢٧٨.

(٣) الكلمات لسعيد النورْسي، ٤٥/١.

(٤) نقلا عن كتابنا "مفاتح النور" بتصرف يسير. ص٢٧٩-٢٨٣.

(٥) وانظر: النحل:٤؛ المعارج:١٩-٢١.

(٦) وانظر: الإسراء:٦٧، ١٠٠.

(٧) ونظر: الفجر:١٩-٢٠؛ لمعارج:١٩-٢١.

(٨) الموافقات للشاطبي، ١٦٨/٢.

(٩) الموافقات للشاطبي، ٥٣/٢.

(١٠) في ظلال القرآن للسيد قطب، ١٧٣/١.

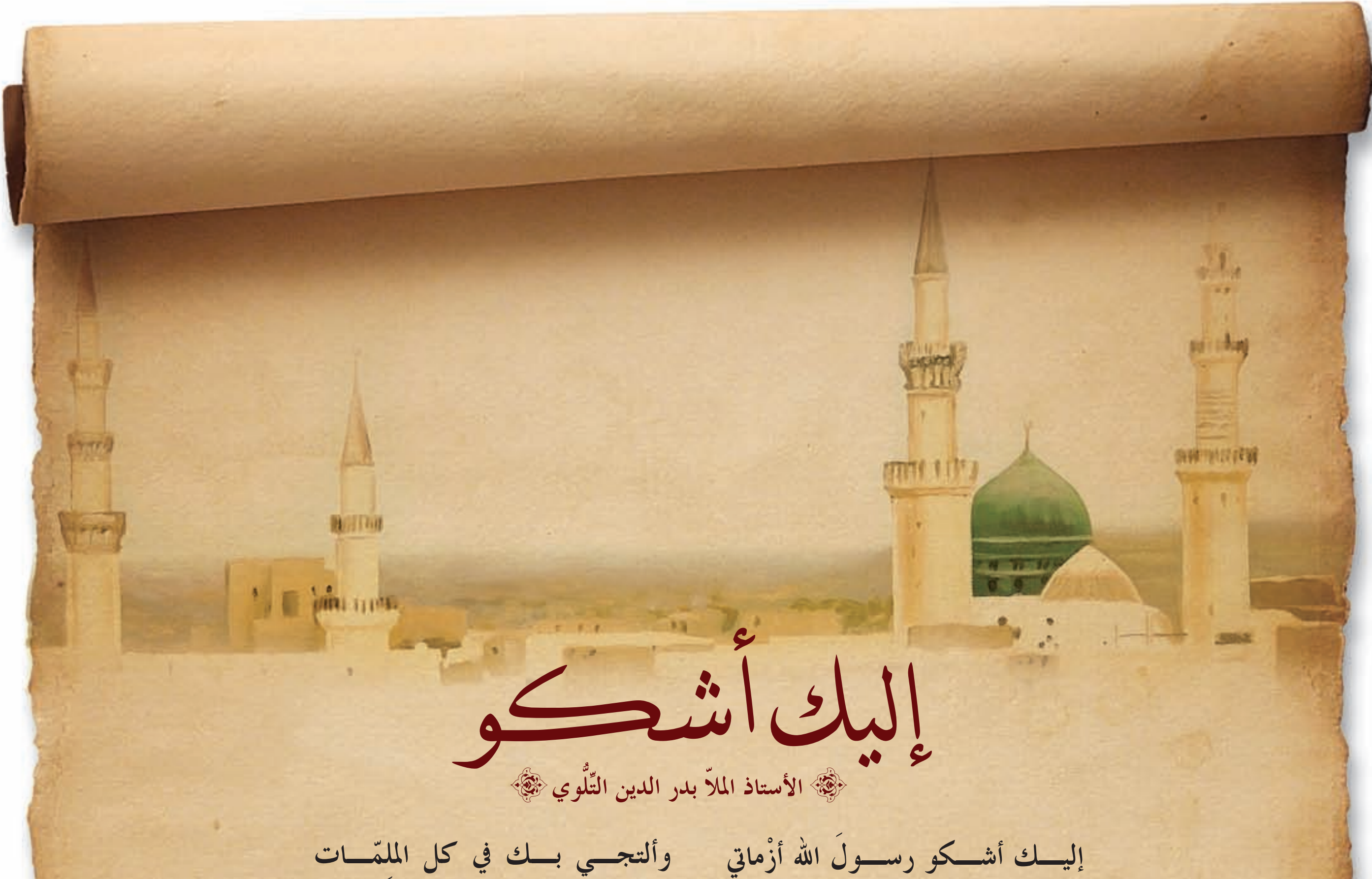
(١١) وانظر: البقرة:٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠؛ الأنفال:١؛ الإسراء:٨٥؛ الأحزاب:٦٣.

(١٢) رواه الإمام أحمد في المسند، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد.

(١٣) قال ابن حجر: "كَنَفَهُ: بفتح الكاف والنون، بعدها فاء، أي جانبه، والكَنَفُ أيضا: السِّتْرُ، وهو المراد هنا. والأول مجاز في حق الله تعالى، كما يقال: فلان في كنف فلان؛ أي في حمايته وكلاءته." فتح الباري لابن حجر، ٤٨٨/١٠.

(١٤) وانظر: سورة ص:٤٥، ٣٠، ١٧، ٤١، ٤٤؛ الإسراء:٣.

(١٥) وقيل أيضا: هو بيان لما يقع بقلوب الناس من حسرة وندامة؛ مما فرطوا في جنب الله؛ فكفروا وكذبوا! رواه الطبري عن مجاهد وقتادة، ونحوه عن ابن عباس: جامع البيان: ٢،٣/٢٣. وهذا المعنى وذاك كلاهما وارد عند الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير الآية من سورة يس.



# إليك أشكو

الأستاذ الملاّ بدر الدين التِّلّوي

إليك أشكو رسولَ الله أزْماتي ... وألتجي بك في كل المِلمّات

أنت المُرَجَّى لكل العالمين وأنـ ... ـتَ الملتجا لهم في كل حالاتِ

إذْ أنت –لا ريب– أعلى الخلق منزلةً ... عند الإله وأحظاهمْ لرُتْباتِ

لذاك كنتَ خِتامَ الأنبياء وكا ... ن دينُك الحقُّ نَسّاخَ الديانات

وخصّك اللهُ بالقرآن معجزةً ... عُظمَى وأسرى بك فوق السماوات

حتى رأيتَه بالعينَين جَلَّ عن التَّـ ... ـشْبيه مَعْ كُبرى آياتٍ جَليّاتِ

يا رحمةَ الله مَنْ مِنْ نوره شرَقتْ ... شمسُ الوجود على كلِّ البريات

مَنْ لي سواكُمُ مَولىً آخذًا بيدي ... عطفًا ويَدفعُ ما بي مِنْ بليّات

ومَنْ لي غيرُكُمُ في الناس يُنقذُني ... من المزلات يَهدي للمَبرّات

وقد أحاط بيَ الضرُّ وضقتُ بما ... قد مسني اليومَ ذرعا مِنْ مصيبات

فجُدْ بفضلك يا خير الأنام وأَدْ ... ركني أيَا خيرَ من يُرْجَى لِشدّات

واجعل حَمِيَّتك الحَمْساءَ حاميَتي ... يا مَن أحقُّ بأن يحمي الحقيقات

فإنني لك ذو قُربى لأنِّيَ من ... أولاد عمِّك عباسِ البَسَالات

حاشاك أن تَحرِمَ الراجي لفضلك لا ... سِيْمَا إذا كان من ذوي القَرابات

أنا عُبيدك حتى الموت يا سندي ... في باب كهفك قِطميرُ الرَّجاءات

إن كنتُ غير حريّ بدخول حما ... ك أنت أحرى بأن تعفوَ زَلاتي

لا يُحصى مَنْ جا ثقيلا بالكبائر حتى ... الكفر أَسْعَفتَهُ إذْ تاب خلعاتِ

صلى عليك إلهُ العالمين صَلا ... ةً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى بعَدّات

معْ آلِكَ الغُرّ والأصحابِ قاطبةً ... إليك أشكو رسولَ الله أزْماتي

(*) من كبار العلماء والمربّين بتركيا.

# واحة القراء

الحبّ في الله نعمة لا يقدّرها إلاّ من تخلّلت أعماقه، وتعششت سويداء فؤاده، تنعمّت سرائره بأزاهير روحانية مقدّسة، يتلمس رحماتها بجود ما تجود به قريحته، وهو في نشوة ذلك الحب يرجو من الله تعالى أن يوسعه على أعضاء هذه المجلّة وكاتبيها من مخلصي هذه الأمة.

**ناجي شنوف / الجزائر**

لقد اطلعت على موقع المجلة على الانترنت فأعجبني ما تحتويه من مواضيع مهمة، فلكم جزيل الشكر.

**منصور صالح بن معمر / الجزائر**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد، أتابع بكل التقدير والإعزاز أعداد إصداركم الجاد المتميز، والتي هي بحق منارة إسلامية ثقافية فكرية لا غنى عنها للباحث أو للقارئ، حيث أنها تمثل بجلاء منهج الاعتدال والوسطية الذي يمثل فكرنا الإسلامي خير تمثيل، فمعكم الله تعالى، وإلى الأمام دائمًا من أجل إثراء الفكر الإسلامي المستنير.

**يسري عبد الغني عبد الله / مصر**

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته،

أشكر السادة القائمين على العمل بهذه المجله العلميه الجميله التي تفيد جميع شباب المسلمين، وأشكركم شكرا جزيلا...

**شريف / مصر**

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

اطلعت على أعداد مجلة حراء، وانتابني فرح شديد لمستواها الراقي سواء من حيث الموضوعات أو الشكل، ولسعيها التواصل مع كافة أفراد الأمة، فجزاكم الله خيرا وأثابكم.

**د. سعاد الناصر (أم سلمى) / المغرب**

جزاكم الله خيرا على هذا المجهود.. عندما يقرأ الإنسان المتفتح قبسات من كلمات الشيخ المفكر فتح الله كولن، يطمئن بأن العالم الإسلامي بخير وأن المستقبل لهذا الدين..

**محمد / مصر**

السلام عليكم وبعد،

لقد تشرفت بالتعرف على مجلتكم.. وآمل أن يكون بيني وبينكم تواصل في القريب العاجل.. ووفقكم الله لكل خير..

**أخوكم.. عبدالله بن علي السعد / السعودية**

شكرا كثيرا على هذا الموقع الجميل، ولكم منا أجمل التحيات على هذه الجهود المباركة إن شاء الله... وبارك الله فيكم والف تحية لكم ولمشروعكم هذا....

**الصحفي رائد / فلسطين**

بعد التحية والاحترام،

وبعد، دفقات الإيمان والعلم والثقافة والحضارة التي وجدناها في مجلتكم الغراء المتميزة والمتفردة في الطرح والقضايا لتصل بالأنسان بمشروعها الحضاري المنشود وعيا وقيما أود معرفة طريقة الإشتراك بالمجلة ومبلغ الاشتراك وطريقة الدفع، أو مراكز البيع في الأمرات العربية

**د. سالم بسيس / الإمارات العربية المتحدة رأس الخيمة**

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

شكر الله لكم مساعيكم الحميدة في تنوير فكر المسلمين.بما تقدمونه من مواضيع متميزة في مجلتكم "حراء". أسأل الله أن يوفقكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين، ويسدد خطاكم، فهو نعم المعين والناصر.

**محمد درغازي / المغرب**

السلام عليكم،

دمتم في خدمة العلم والمعرفة.. وبعد اطلاعي على مجلتكم المحترمة، ارتأيت أن لا أتأخر في مراسلتكم لأشكركم على المجهودات..

**د.بلهواري فاطمة / الجزائر**

- سجلٌّ يضم بين دفتيه كنوز أعظم إنسان ﷺ وطئتْ قدماه الشريفتان الأرض.
- صورة غاية في الجمال للبردة الشريفة تحلي صدر هذا السجل.
- صور مع شروح وافية لمَا تركه الخلفاء الراشدون من آثار عبر التاريخ.
- متحف متنقل بالآثار الإسلامية لا يستغني عنه سائح ولا مقيم.
- قطعة جمالية وفنية رائعة تفخر المكتبات بوجوده بين أهم كتب التراث لديها.




مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس: 2022619204+ محمول: 20127874552+

دار النيل


حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
دعوة ودعاء
دعوة لا يردفها دعاء لا تخصب ولا تزهر،
فما لم نعط: "ادعوني أستجب لكم"، وجودنا أقفرت روحنا، وأجدب قلبنا...
وسقطت دعوتنا في فخ الدنيا... فكم من مرة هَزَّ دعاؤنا جوانح السماء، فتفتحت أبوابًا،
وتهاطلت علينا لطفًا ورحمةً ووِدادَ.. فإذا رؤانا ربيع مزهر... وفكرنا عطاء مثمر...
وأنفاسنا عطر يضوع... ودعوتنا دفء للمقرور.. وفَرَج للمكروب، وعزاء للمحزون..
فما خابت دعوة لا تنفك تتضرع بحرقة وبلوعة... وتدعو الله من قلب سليم وروح منير...!
* * *
ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
08